جائزة نوبل للآداب ٢٠١٤

@ketab_n
Follow Me
29.5.2016

باتريك موديانو

آحاد أغسطس

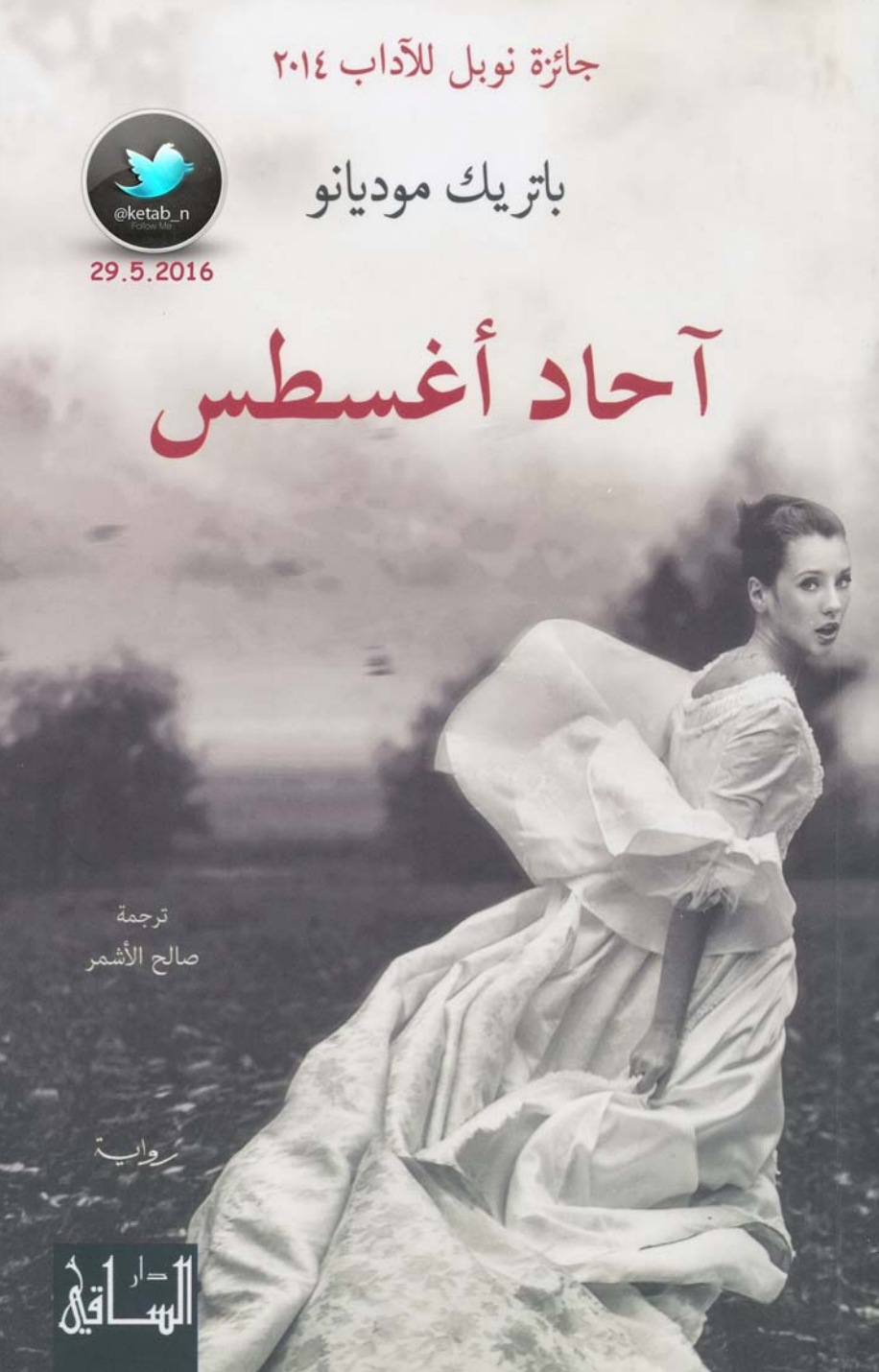

ترجمة
صالح الأشمر

رواية

دار الساقي

باتريك موديانو

آحاد أغسطس

ترجمة

صالح الأشمر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آحاد أغسطس

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

Patrick Modiano, *Dimanches d'août*
© Éditions Gallimard, Paris 1996

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-851-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

Avec le soutien du
CNL

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des programmes d'aide à la publication de l'Institut français/Ministère français des affaires étrangères et du développement international.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

Twitter: @ketab_n

إلى جاك روبير

إلى مارك غروندبوم

Twitter: @ketab_n

أخيراً وقعت عينُه على عيني. كان ذلك في مدينة نيس[1]، أوّل جادّة غامبيتا. وكان يقف منتصباً على نوع من المِنصّة أمام بسطة عُرضت عليها سِترات ومعاطف جلدية، وكنت قد اندسَسْتُ في الصف الأول للمتسكّعين الذين كانوا يصغون إليه مُطرياً بضاعته.

حالما رآني تخلّى عن ثرثرته كبائع جوّال وصار يتكلم بأسلوب بارد، كما لو أنه يريد أن يقيم مسافة بينه وبين المستمعين إليه وأن يُفهمني أن هذه المهنة كانت دون مستواه.

لم يتغيّر كثيراً بعد مرور سبع سنوات، سوى أن سحنته بدت لي أكثر احمراراً. كان المساء يُرخي ظلاله وكنسَتْ هبّة ريح جادّة غامبيتا[2] مع تساقُط أولى قطرات المطر. إلى جانبي كانت امرأة ذات شعر أشقر مجعّد تقيس معطفاً. وكان هو يميل نحوها مشجّعاً:

– يلائمكِ كل الملاءمة، يا سيّدتي.

كان الصوت لا يزال محتفظاً بنبرته المعدنية، من معدن كان لِيَعتريه الصدأ منذ زمن؛ وفي الأثناء كان المتسكعون قد شرعوا

١ Nice: مدينة تقع جنوب شرق فرنسا على البحر المتوسط، عاصمة منطقة كوت دازور.

2 Boulevard Gambetta

Twitter: @ketab_n

في التفرّق بسبب المطر، وخلعت المرأة الشقراء المعطف ووضعته وَجْلى على حافة المِنصّة.

– هذا أوكازيون حقيقي، يا سيدتي... بسعر مخفّض على الطريقة الأميركية... ينبغي لك...

غير أن المرأة أشاحت عنه من دون أن تترك له الوقت ليكمل عبارته، ولاذت بالفرار مع الآخرين كما لو أنها تخجل من الإصغاء إلى كلمات بذيئة يُسمعها إياها بعض المارّة.

هبط من على المنصة ومشى نحوي.

– يا لها من مفاجأة سارّة... أنا دقيق الملاحظة... تعرّفتُ إليك من النظرة الأولى.

كان يبدو مضطرباً ومُتوجّساً. أما أنا فعلى العكس، كنت أشعر بأني هادئ ومطمئن.

– غريب أن نتلاقى هنا، هيه؟ قلت له.

– نعم.

كان يبتسم، وقد استعاد طمأنينته. في الأثناء توقّفت شاحنة صغيرة عند طوار الرصيف، على مستوانا، وترجّل منها رجل يرتدي قميصاً رياضياً أحمر.

– يمكنك أن تفكّك كل هذا... قال للرجل.

ثم حدّق في عينيّ مباشرة:

Twitter: @ketab_n

– هل نحتسي كأساً؟

– إن أحببتَ.

– سأذهب لاحتساء كأس مع السيّد في الفوريم[1]. تعالَ لتأخذني بعد نصف ساعة.

شرع الآخر في تحميل المعاطف والأثواب في الشاحنة الصغيرة، فيما كانت تنساب من حولنا أفواج الزبائن خارجين من أبواب المتجر الكبير الذي يشكّل زاوية شارع لابوفّا. وكان رنين جرسٍ خافت يعلن لحظة الإقفال.

– الأحوال مرضية... توقّف المطر تقريباً...

كان يتوشّح جراباً جلدياً مُفلطحاً ذا حمالة.

اجتزنا الجادّة ومضينا في لا برومناد ديزنغليه[2].

كان المقهى على مقربة بجانب سينما الفوريم؛ اختار طاولةً خلف الكوّة المزجّجة واسترخى على المقعد.

– ما الجديد؟ قال لي. أنت في الكوت دازور[3]؟

أردت أن أشجّعه:

– عجيب... رأيتك بالأمس في لا برومناد ديزانغليه...

---

١ Forum: الساحة أو الميدان.

٢ La Promenade des Anglais: جادّة الإنكليز.

٣ La Côte d'Azur: منطقة فرنسية على البحر المتوسط تُعرف بالساحل اللازودي حيث تقع مدن نيس وكان ومونت كارلو.

Twitter: @ketab_n

– كان عليك أن تُحيّيني.

ظلّه الكثيف، على طول البرومناد، وهذا الجِراب ذو الحمالات الذي يتباهى بحمله بعض الرجال، ممن قاربوا الخمسين، مع سِترات مطابقة للقامة، بغية الحفاظ على قوام فتويّ...

– أعمل منذ بعض الوقت في المنطقة... أحاول تصريف كمية من مخزون الثياب الجلدية...

– الشغل ماشي؟

– بَيْن بَيْن. وأنت؟

– أنا أيضاً أعمل في المنطقة، قلت له. لا شيء مثير للاهتمام.

في الخارج، كانت مصابيح البرومناد الكبيرة تضيء تدريجياً. في البدء يُرى نور بنفسجي ومتذبذب تطفئه أدنى نسمة كشعلة شمعة. لكن كلا. في ظرف لحظة يصبح هذا النور الراعش أبيض وساطعاً.

– إذاً، نحن نعمل في المكان نفسه، قال لي. أنا أسكن في أنتيب[1]، غير أنني أتنقّل كثيراً...

فتح جرابه كما تُفتح حقائب التلاميذ وأخرج منه علبة سجائر.

١ Antibe: مدينة فرنسية على ساحل المتوسط بين كان ونيس.

Twitter: @ketab_n

– أما عدت مقيماً في فال – دي – مارن[1]؟ سألته.

– كلا، انتهى الأمر.

مرّت لحظة من الضيق بيننا.

– وأنت؟ سألني، هل عدتَ إلى هناك؟

– أبداً.

كان مجرّد التفكير في أن أجدني مجدداً على ضفاف المارن يجعلني أرتعش. ألقيت نظرة على لا برومناد ديزنغليه، وعلى السماء البرتقالية والشمس الآخذة في الأفول، وعلى البحر. نعم، كنت في نيس حقاً، وتولّدت لديّ رغبة في إطلاق زفرة ارتياح.

– لا أرغب إطلاقاً في العودة إلى ذلك المكان، قلت له.

– وأنا كذلك.

وضع النادل عصير البرتقال والعرق الممزوج بالماء والكؤوس على الطاولة. وكان كلٌّ منا متشبّثاً بالنظر إلى أقلّ حركة تصدر عن الآخر، كما لو كنا نريد أن نؤخّر إلى أبعد أجل ممكن اللحظة التي نستأنف فيها حديثنا. وكان هو من كسر الصمت أخيراً:

– أريد أن أوضح بعض الأمور معك...

تأمّلني بعين فقدت بريقها.

---

١ Val – de – Marne: مقاطعة تقع جنوب شرق باريس في منطقة إيل – دي – فرانس. سمّيت بذلك لأن نهر المارن، أطول أنهار فرنسا، يمر في أراضيها.

Twitter: @ketab_n

– اسمع... لم أكن متزوّجاً سيلفيا على الرغم من المظاهر... لم تُرد أمي هذه الزيجة...

في طرفة عين ظهر لي طيف السيدة فيلكور، جالسة على الجسر العائم، على ضفة المارن.

– أنت تتذكر أمي... لم تكن امرأة سهلة القِياد... كانت بيننا مشاكل مالية... كان من شأنها أن تمنع عني أسباب العيش لو كنت قد تزوجت سيلفيا.

– أنتِ تدهشني كثيراً.

– أيْ نعم، هذا هو الحاصل...

خِلتُ أنني أحلم. لماذا لم تخبرني سيلفيا بالحقيقة؟ أتذكّر حتى أنها كانت تلبس خاتم زواج.

– أرادت أن تُوهم بأننا متزوجان... كان ذلك مسألة كرامة بالنسبة إليها... وأنا، تصرّفت كنذل... كان عليّ أن أتزوّجها...

وكان عليّ أنا أن أخضع لحكم الواقع: هذا الرجل لا يشبه ذاك الذي عرفته قبل سبع سنوات. ما عاد يُظهر تلك الثقة بالنفس ولا تلك الفظاظة التي قبّحته في نظري. بالعكس، كان في تلك اللحظة موسوماً بدماثة منقادة. تغيّرت يداه، وما عاد يحمل سلسلة.

– لو كنت قد تزوجتها لكان كل شيء مختلفاً...

– أتظن ذلك؟

Twitter: @ketab_n

يقيناً كان يتكلّم عن امرأة أخرى غير سيلفيا، وأصبح للأشياء، مع تقادم الزمن، معنى آخر عنده وعندي.

– لم تغفر لي قطّ هذه النذالة... كانت تحبّني... كنت الوحيد الذي أحبّته...

كانت ابتسامته الحزينة مدهشة بقدر ما كان الجراب الذي يتقلّده مدهشاً. لا، ما كنت أواجه الرجل نفسه الذي كانه على ضفاف المارن. ربما نَسِيَ جوانب برمّتها من الماضي أو انتهى به المطاف إلى الاقتناع بأن بعض الحوادث، التي كانت لها عواقب جسيمة علينا كلنا، لم تحدث أبداً. وراودتني رغبة لا تقهر في زعزعته.

– ومشروع المطعم والمسبح في تلك الجزيرة الصغيرة، في اتجاه شنفيير[1]؟

كنت قد رفعت صوتي وأدنيت وجهي من وجهه، لكن سؤالي لم يربكه في شيء وظلّ محتفظاً بابتسامته الحزينة.

– لا أفهم قصدك... أنت تعلم، كنت أهتمّ خصوصاً بجياد والدتي... كان لديها حصانا سباق تُجريهما في فنسين[2]...

كان يبدو من حُسن النيّة بحيث أنني لم أشأ معارضته.

---

١ Chennevières: بلدة على ضفاف نهر المارن في ناحية فال – دي – مارن.

٢ Vincennes: بلدة تقع شرق باريس فيها ميدان لسباق الخيل.

Twitter: @ketab_n

– أرأيت منذ قليل الرجل الذي كان يُحمّل معاطفي في الشاحنة الصغيرة؟ إذاً، هذا الرجل يراهن في سباق الخيل... في رأيي، لا يمكن أن يُرى في ذلك إلا سوء فهم بين الناس والجياد...

أيهزأ بي؟ كلا، كان لا يزال مجرّداً من أي دُعابة. وكان ضوء النيون يُبرز أمارات التعب والوقار في وجهه.

– بين الجياد والناس ليست الحال على ما يُرام إلا نادراً... لطالما قلت له إن من الخطأ أن يراهن في السباقات، لكنه يستمر ولا يربح أبداً... وأنت؟ أما زلت مصوّراً؟

نطق الكلمات الأخيرة بالنبرة المعدنية التي كانت له منذ سبع سنوات.

– آنذاك، لم أفهم جيداً مشروعك الخاص بتكوين ألبوم للصور الشمسية...

– كنت أريد التقاط صور عن المسابح النهرية في ضواحي باريس، قلت له.

– المسابح النهرية؟ أمن أجل ذلك أقمتَ في لافارين[1]؟

– نعم.

– غير أن هذه ليست مسبحاً نهرياً على وجه الدقة.

– أهذا ما تراه؟ ومع ذلك هنالك الباش...

---

١ La Varenne: منطقة قرب باريس.

Twitter: @ketab_n

– وأظنّ أن لم يُتح لك الوقت لالتقاط صورك؟

– بلى، بلى... يمكنني أن أريك بعضها، إذا شئت...

أصبح حديثنا لغواً، وكان غريباً التعبير على هذا النحو، بأنصاف الكلمات وبالمُضمرات.

– على كل حال، بوسعي القول إنني تعلّمت أشياء كثيرة موجبة للعِبرة... وكان ذلك أمثولة لي...

لم تحرّك ملاحظتي فيه ساكناً. ومع ذلك كنت قد أبديتها بلهجة عدائية، وتابعت قائلاً:

– أنت أيضاً، على ما أظنّ، تحتفظ بذكرى سيّئة عن كل هذا؟

غير أنني ندمت في الحال على هذه الإثارة. أما هو فقد انطوى على نفسه وغمرني بابتسامته الحزينة.

– ما عدت أذكر شيئاً، قال لي.

ألقى نظرةً خاطفة على ساعة يده.

– سيأتي مَن يأخذني قريباً، ويا للأسف. لكنت وددت البقاء معك مدة أطول... لكن آمل أن نلتقي مجدداً...

– أتريد أن تراني حقاً؟

أحسستُ بضيق. ربما كنت أقل ارتباكاً في حضور الرجل نفسه قبل سبع سنوات.

– نعم. أودّ أن أراك من وقت إلى آخر لكي نتكلم عن سيلفيا.

Twitter: @ketab_n

– أتظنّ أن ذلك مفيد حقاً؟

كيف يمكنني أن أحدّثه عن سيلفيا؟ إني لأتساءل إن كان، بعد مرور سبع سنوات، لا يخلط بين سيلفيا وامرأة أخرى. لقد تذكّر أنني كنت مصوّراً، لكن يبقى لدى العجائز الذين فقدوا الذاكرة بعض شذرات من الماضي: عصرونية عيد ميلاد، كلمات تهويدة كانت تُغنّى لهم لينامو ا...

– أما عدتَ راغباً في الحديث عن سيلفيا؟ ضَع نُصب عينيك هذا...

ضرب بإصبعه الطاولة وتوقّعت أن ينهال عليّ، كما في الماضي، بسيلٍ من عبارات التهديد والوعيد، مخففة بعض الشيء بفعل الزمن، طبعاً، على غرار الأقوال التي يُدلي بها مجرمو الحرب المخرّفون، الذين يساقون، بعد مرور أربعين سنة على جرائمهم، أمام المحاكم.

– ضَع نُصبَ عينيك أن لا شيء كان ليحدث لو كنت قد تزوجتها... لا شيء... كانت تحبني... والشيء الوحيد الذي أرادته هو أن أعطيها أنا أيضاً الدليل على حبي لها... وكنت عاجزاً عن إعطائها إيّاه...

وإذ كنت أتأمّله، هناك، قبالتي، وأصغي إلى أقوال هذا المذنب التائب، تساءلت إن لم أكن ظالماً له. كان يهرف من قبلُ لكن

Twitter: @ketab_n

حاله تحسّنت بمرور الزمن. آنذاك ما كان بوسعه إجراء هذا النوع من الاستدلال.

– أعتقد أنك واهم، قلت له. لكن لا أهمية لذلك إطلاقاً. النيّة طيّبة، على كل حال.

– لست واهماً أبداً.

وضرب بإصبعه الطاولة مرّةً أخرى كما يفعل السكران، وخشيت أن يستعيد طبعه الشرس، لكن كان من حُسن الحظ أن رجل الشاحنة دخل في تلك اللحظة إلى المقهى ووضع يده على كتفه. التفت نحوه وحدّق في وجهه كما لو أنه لم يتعرّف إليه.

– حالاً... أنا في تصرّفك حالاً...

نهضنا ورافقته حتى الشاحنة الصغيرة التي كانت متوقفة أمام سينما الفوريم. زلق بوابة المركبة، كاشفاً عن صف من المعاطف مدلاة بتعاليق.

– يمكنك أن تختار بنفسك...

لم أحرّك ساكناً. عندئذٍ أخذ يتفحص المعاطف واحداً واحداً. كان ينزل تعاليقها ويرفعها تباعاً.

– هذا ينبغي أن يكون على مقاسك... ناولني المعطف مع التعليقة داخله.

– لست بحاجة إلى معطف، قلت له.

Twitter: @ketab_n

– بلى... بلى... إرضاءً لي...

كان الآخر ينتظر، جالساً على رفرف الشاحنة الصغيرة.

– جرّبه.

تناولت المعطف ولبسته أمامه. تأمّلني بعين خيّاطٍ حاذق أثناء تجريب ثوب.

– ألا يضايقك عند الكتفين؟

– لا، لكنني قلت لك إنني لا أحتاج إلى معطف.

– خذه كُرمى لي. أريد ذلك حتماً.

زرّره عليّ بنفسه. وكنت أقبح من تمثال خشبي لعرض الملابس.

– يلائمك كل الملاءمة... والميزة عندي كثرة المعاطف ذات المقاسات الكبيرة...

تركته يفعل ما يشاء بغية التخلص منه في أسرع وقت. رغبت عن المناقشة. وكنت أتعجّل انصرافه.

– إن وجدت أي مشكلة عد لأخذ معطف آخر بدلاً منه... سأكون عند بسطتي، في جادة غامبيتا، غداً بعد الظهر... وعلى أي حال، سأعطيك عنواني...

بحث في جيب سترته الداخلي وناولني بطاقة زيارة.

– خُذ... عنواني ورقم هاتفي في أنتيب... أعتمد عليك...

Twitter: @ketab_n

فتح باب الشاحنة الأمامي، ثم صعد وجلس على المقعد. اتخذ الآخر مكانه خلف المقود. أنزل هو زجاج النافذة ومدّ رأسه إلى الخارج.

– أعلم أنك لا تستلطفني، قال لي. غير أنني على أتمّ الاستعداد للاعتراف بالذنب على نحو مشرّف... لقد تغيّرت... أدركت ما هي أخطائي في الماضي... خصوصاً نحو سيلفيا... أنا الوحيد الذي أحبّته حقاً... سوف نتحدث معاً عن سيلفيا، هيه؟

قاسني بالنظر من قدميّ إلى رأسي.

– المعطف يلائمك تماماً...

رفع زجاج النافذة من دون أن يصرف نظره عني. لكن بغتةً، وفيما كانت الشاحنة تقلع، تجمّدت أسارير وجهه على تعبير ينمّ عن الذهول: ولم أتمالك نفسي عن القيام بحركة مهينة – غير مفهومة من قِبل رجل محتشم مثلي –، فلقد شهرت نحوه أصبع يدي الوسطى.

Twitter: @ketab_n

كان بعض الأشخاص يدخلون سينما الفوريم لحضور حفلة الساعة التاسعة ليلاً. وراودتني أنا أيضاً الرغبة في الدخول إلى صالة السينما القديمة المفروشة بالمخمل الأحمر، لكن أردت أولاً التخلّص من هذا المعطف الذي يأخذ بكتفيّ مضيّقاً عليّ أنفاسي. وفي عُجالتي انتزعت أحد الأزرار. ثم طويت المعطف ووضعته على مقعد في البرومناد وابتعدت يتملّكني الشعور بأني أترك ورائي شيئاً مريباً.

أهي الواجهة التالفة لمبنى سينما الفوروم؟ أم ظهور فيلكور مجدداً؟ فكرت في الأسرار التي باحت لي بها أمّه بخصوص جريمة القتل الغامضة التي أودت بالممثل الهزلي إيموس على متراس في حي محطة الشمال أثناء تحرير باريس. كان إيموس يعرف أشياءً كثيرة، وسمع الكثير من الأحاديث، وأكثر من معاشرة أشخاص مريبين في فنادق شنفيير وشامبيني ولافارين[1]. وكانت أسماء هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم لي السيدة فيلكور

١ Champigny – Chennevières: بلدتان في منطقة إيل – دي – فرانس؛ La Varenne: قرية في شمال غرب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

تذكّرني بمياه المارن الوَحِلة.

نظرت في بطاقة زيارته:

فريدريك فيلكور، سمسار.

قديماً كانت حروف اسمه لتكتب سوداء ومحفورة، أما اليوم فهي برتقالية اللون كتلك المستعملة في إعلان بسيط، وكان مصطلح "سمسار" المتواضع، إذا ما تذكّرنا فريدريك فيلكور الذي كان على ضفاف المارن، ينبئ بأن مرور بضع سنوات يكفي للقضاء على كثير من الادّعاءات. وكان قد كتب بخط يده عنوانه بالحبر الأزرق: ٥، جادة بوسكيه[1]، أنتيب. هاتف: ٥٠٢٢٨٣.

سرتُ بمحاذاة جادة فيكتور هيغو[2]، لأنني قررت العودة إلى غرفتي ماشياً. لا، ما كان عليّ أن أجري محادثة معه مطلقاً.

في المرة الأولى، عندما رأيته مارّاً في جادة لا برومناد ديزنغليه بخطى متثاقلة، متقلّداً جرابه المضحك، لم أشعر بأي رغبة في مخاطبته. كانت شمس خريفية ترسل أشعتها اللطيفة في يوم الأحد ذاك، وكنت جالساً على رصيف كيني. وهنالك توقف وأشعل سيجارة. ثم لبث بعض الوقت ساكناً، خلف سيل السيارات. كان يهمّ بعبور الشارع عندما تضيء الشارة الحمراء ليجد نفسه

1 Avenue Bosquet

2 Bolevard Victor-Hugo

Twitter: @ketab_n

على الرصيف قبالتي تماماً، وعندئذٍ يمكن أن يلحظني. وإما أنه ما عاد يتحرك، وقد حلّ المساء، ليرتسم شبحه كخيال ظل على صفحة البحر أمام عينيّ إلى الأبد.

تابع سيره باتجاه كازينو روهل وحديقة ألبير الأول، متقلّداً جرابه الجلدي، وكان من حولي جمهرة من النساء والرجال، أشبه بجثث مُحنّطة، يحتسون الشاي، صامتين، وأنظارهم شاخصة نحو لا برومناد ديزنغليه. لعلّهم، هم أيضاً، يترصّدون وسط هذا الحشد المتقاطر أشباحاً من ماضيهم.

Twitter: @ketab_n

أعود دائماً إلى غرفتي مجتازاً ما كان يشكّل في الماضي قاعة الطعام في فندق ماجستيك القديم، عند منعطف جادّة سيميه[1] تماماً. وهي الآن لا تعدو كونها بَهْواً يُستخدم قاعةً للاجتماعات أو المعارض. في رُكنٍ قصيّ خفيف الظل كانت جوقة تنشد تراتيل بالإنكليزية. وقد كُتب على اللوحة الإعلانية، عند كعب الدرج، هذه العبارة بالإنكليزية: "اليوم، البيت المقدّس"[2]. كانت أصواتهم المرتفعة لا تزال تصلني، في الطابق الثاني، عندما أغلقت باب غرفتي. لكأنها أغاني الميلاد. ومن جهة ثانية فإن عيد الميلاد يقترب. كان الجوّ بارداً في هذه الغرفة المفروشة، وهي غرفة فندق قديمة مع حمّام، لا يزال رقمها مكتوباً على صفيحة نحاسية، داخل الخزانة: ٢٥٢.

أشعلت جهاز التدفئة المركزية غير أن الحرارة التي بثّها كانت من الضعف بحيث نزعت مأخذ الكهرباء. ثم استلقيت على السرير من دون أن أخلع حذائي.

1 Boulevard de Cimiez

٢ بالإنكليزية في الأصل Today: *The Holy Nest*

Twitter: @ketab_n

في بناية الماجستيك هذه شقق من ثلاث أو أربع غرف، هي أجنحة الفندق القديمة، أو غرف عادية وُصِل بعضها ببعض أثناء أعمال الترميم. وأنا أفضّل السكن في غرفة واحدة، فهي أرخص وتُوهم بأنني ما زلت أعيش في فندق. وإني لأتساءل إن لم يكن المكتب المصنوع من خشبٍ داكن، تقليد طراز لويس السادس عشر، من بقايا أثاث الماجستيك. أما الموكيت فلم تكن في الغرفة ٢٥٢: وهي موكيت ذات لون رمادي مُسمرّ متآكلة الأطراف. كما جرى تغيير المغطس والمغسلة أيضاً.

لم تكن لديّ رغبة في تناول طعام العشاء. أطفأت المصباح وأغمضت عينيّ واستسلمت لهدهدة أصوات الجوقة الإنكليزية البعيدة. وكنت لا أزال مستلقياً على السرير، في العتمة، عندما رنّ الهاتف.

– آلو... هذا فيلكور...

كان صوته خافتاً جداً، كالهمس تقريباً.

– هل أزعجك؟ وجدت رقم هاتفك في الدليل...

لبثت صامتاً. سألني أيضاً.

– هل أزعجك؟

– أبداً.

– أرغب ببساطة أن تكون الأمور واضحة في ما بيننا. عندما

Twitter: @ketab_n

افترقنا شعرت بأنك تحقد عليّ...

– لا أحقد عليك...

– مع ذلك، تلك الحركة التي قمت بها نحوي...

– كانت مزحة.

– مزحة؟ لديك حسّ دعابة شاذّ حقاً.

– كذلك الأمر، قلت له. يجب قبولي كما أنا.

– وجدت هذه الحركة عدائية تماماً... لديك ما تؤاخذني عليه؟...

– لا.

– لم أطلب منك شيئاً على الإطلاق، أنا... أنت، يا هنري، الذي جئت تبحث عني. كنت تنتظر أمام البسطة، في جادة غامبيتا.

– أنا لا أُدعى هنري...

– اعذرني... خلطت بينك وبين شخص آخر... ذلك الأسمر الذي كان يدأب على إفشاء أسرار السباقات... لا أدري ما الذي كانت سيلفيا تجده فيه...

– لا أرغب في الحديث عن سيلفيا معك.

كان الاستمرار في هذه المحادثة الهاتفية أمراً مضنياً حقاً. وكانت أصوات الجوقة الإنكليزية لا تزال تصلني من الردهة

Twitter: @ketab_n

وتبعث في نفسي الطمأنينة: لم أكن وحدي تماماً، هذا المساء.

– لماذا لا تريد التحدث عن سيلفيا معي؟

– لأننا لا نتحدث عن الشخص نفسه. قطعت المكالمة الهاتفية، وفي طرفة عين رنّ الهاتف من جديد.

– ليس من اللائق أن تُقفل الخط... لكنني لن أتركك أبداً...

أراد أن يُضفي على صوته قدراً من السخرية.

– أنا متعب، قلت له.

– وأنا أيضاً. لكن هذا ليس سبباً للامتناع عن التكلم معاً. نحن الوحيدان من الآن فصاعداً اللذان يعرفان بعض الأشياء...

– كنت أظن أنك نسيت كل شيء...

حلّ الصمت.

– ليس صحيحاً... هذا يزعجك، هيه؟

– لا.

– ضَعْ نُصبَ عينيك أنني أنا مَن يعرف سيلفيا حق المعرفة... كنت أنا الذي أحبّته أكثر... ها أنت ترى، أنا لا أتهرّب من مسؤولياتي.

أقفلت الخط. مرّت دقائق قبل أن يرنّ الهاتف مجدّداً.

– كانت بيني وبين سيلفيا روابط متينة... الباقي كان بلا أهمية عندها...

Twitter: @ketab_n

كان يتكلّم كما لو أنه يرى أن من الطبيعي أن أقفل الخط للمرّة الثانية.

– أودّ التباحث في كل هذا معك، شئت أم أبيت... سوف أستمر في الاتصال بك إلى أن تقبل...

– سأقفل الخط.

– عندئذٍ سأنتظرك أمام البناية. لن تستطيع التخلّص مني بسهولة... بعد كل اعتبار، أنت الذي جئت تبحث عني...

أقفلت الخط مرةً أخرى. ومن جديد رنّ الهاتف:

– لم أنسَ بعض الأشياء... ما زلت قادراً على أن أسبّب لك الكثير من المتاعب... أريد أن نجري محادثة جدية بخصوص سيلفيا...

– أنت تنسى أنني أستطيع أنا أيضاً أن أسبّب لك الكثير من المتاعب، قلت له.

هذه المرة، بعد أن قطعت المكالمة، طلبتُ رقم هاتفي الخاص ودسستُ السمّاعة تحت المخدّة لكي لا أسمع الرنين.

نهضت، ومن دون أن أضيء المصباح توجّهت نحو النافذة واتكّأت عليها. في الأسفل، كانت جادة سيميه مقفرة. ومن وقت إلى آخر كانت تمر سيارة وفي كل مرّة كنت أتساءل إن كانت ستتوقف، وإن كنتُ سأسمع صفق باب. ثم يخرج ويرفع

Twitter: @ketab_n

رأسه نحو واجهة الماجستيك لكي يلحظ أي الطوابق ما زال مضيئاً. وسيدخل إلى غرفة الهاتف، هناك حيث تبدأ الجادة انحناءها. أكنت لأترك السماعة مفصولة؟ أم أردّ عليه؟ الأفضل أن أنتظر الرنين وأُبقي السماعة على أذني، من دون أن أنبس بكلمة. ولسوف يكرّر: "آلو... هل تسمعني؟... آلو، هل تسمعني؟... أنا قريب جداً منك... رُدّ عليّ... رُدّ عليّ...". لن أقابل هذا الصوت الذي يزداد قلقاً وشكايةً إلاّ بالصمت. نعم، لكم أودّ أن أنقل إليه هذا الإحساس بالفراغ الذي أكابده أنا.

كانت الجوقة قد صمتت منذ مدة طويلة، وما زلت كامناً أمام النافذة. أنتظر أن يرتسم شبحه، في الأسفل، وسط الإنارة البيضاء للجادة، كما كان قد ارتسم في يوم الأحد ذاك، على جادة لا برومناد ديزنغليه.

نزلت ضُحىً إلى الكراج. يمكن الوصول إليه من الطبقة الأرضية للبناية بواسطة درج إسمنتي. يكفي المضيُّ في رواق في أقصى الردهة، وفتحُ باب، وإشعالُ مؤقتة الإنارة.

هذا مكان فسيح، تحت الماجستيك، كان يستخدم، أيام الفندق، مرآباً للسيارات.

لا أحد هنا. كان الموظفون الثلاثة متغيّبين لتناول الغداء. والحق يقال إن عملهم كان يتضاءل شيئاً فشيئاً. أطلق شخص

Twitter: @ketab_n

ما زمور سيارة من محطة الخدمة. كانت هناك سيارة مرسيدس تنتظر وطلب مني السائق مَلء الخزان بالوقود، وأعطاني بخشيشاً كبيراً.

ثم مضيت نحو مكتبي، داخل الكراج. وهو غرفة مربّعة ذات جدران خضراء باهتة وكوىً مزجّجة. وجدت على الطاولة المصنوعة من خشبٍ أبيض ظرفاً كان قد وضعه أحدهم. فتحته وقرأت:

"كُن مطمئناً. لن تسمع شيئاً عني بعد الآن، ولا عن سيلفيا. فيلكور".

قطعاً للشك باليقين أخرجتُ بطاقة زيارته من جيبي وطلبت رقم هاتف منزله في أنتيب: لا جواب، رتّبت مكتبي، حيث تكدّست ملفات قديمة وفواتير منذ عدة أشهر، رفعتها ووضعتها في الخزانة المعدنية. عمّا قليل لن يتبقّى شيء من هذا كله: كان وكيل البناية، الذي حصلت بفضله على المكتب الإداري في هذا الكراج، قد أخطرني بأنهم سيحوّلونه إلى موقف للسيارات فقط.

نظرت من خلال الكوّة الزجاجية: هنالك سيارة أميركية تنتظر. غطاء محرّكها مفتوح وإحدى عجلتيها الخلفيتين مُنفَّسة. عندما يعود الآخرون يجب أن أسألهم إن كانوا قد نسَوها. لكن

Twitter: @ketab_n

متى يعودون؟ هم أيضاً أُبلغوا بإقفال الكراج قريباً، ولا شك في أنهم وجدوا عملاً في مكان آخر. كنت الوحيد الذي لم يتّخذ احتياطاته.

في ما بعد، عصراً، طلبتُ مجدداً رقم هاتف فيلكور في أنتيب. لا جواب. كان واحد فقط من الموظفين الثلاثة قد عاد وأنهى تصليح السيارة الأميركية. قلت له إنني سأتغيّب لمدة ساعة أو اثنتين وطلبت منه الاهتمام بمحطة خدمة السيارات.

كان رصيف جادة ديبوشاج[1] مغموراً بالشمس ومفروشاً ببساط من الأوراق الميتة. وفيما كنت أسير رحت أفكّر في مستقبلي، سوف يدفعون لي تعويضاً مالياً عن إقفال الكراج وسأتعيّش به بعض الوقت. سوف أحتفظ بغرفتي في الماجستيك، ذات الإيجار الزهيد. وربما حصلت من بواستل، الوكيل، على إعفاء من دفع الإيجار تقديراً لخدماتي. نعم، سأبقى في الكوت دازور إلى الأبد. علامَ تغيير الأفق؟ سيكون بإمكاني حتى أن أستأنف مهنتي القديمة كمصوّر وأنتظر مرور السيّاح، على جادة لا برومناد ديزنغليه، حاملاً كاميرا البولارويد[2]. وما كنت قد فكرت فيه عندما ألقيت نظرة على بطاقة زيارة فيلكور ينطبق

1 Boulevard Dubouchage

٢ Polaroïd: آلة تصوير تخرج الصور ذاتياً على الفور.

Twitter: @ketab_n

عليّ أيضاً. يكفي في غالب الأحيان مرور بضع سنوات للقضاء على كثيرٍ من الادّعاءات.

كنت قد حاذيت، على غير قصدٍ منّي، حديقة ألزاس – لورين[1]. انعطفت يساراً نحو جادة غامبيتا، وشعرت بوخزٍ خفيف في القلب وأنا أتساءل إن كنت سأجد فيلكور وراء بسطته. هذه المرة سوف أراقبه من بعيد لئلا يلحظ وجودي وسأغادر على الفور. ولسوف يريحني تأمّل هذا البائع الجوّال الذي لم يعد هو فيلكور القديم ولم يتدخّل أبداً في حياتي. أبداً. بائع جوّال مسالم من هؤلاء الباعة الذين يتواجدون على أرصفة نيس مع اقتراب أعياد الميلاد، ولا شيء أكثر.

لمحت شبحاً يتحرك خلف البسطة. وحين عبرت شارع لا بوفا[2] تبيّن لي أنه لم يكن فيلكور وإنما هو رجل طويل أشقر ذو رأس حصان ويرتدي سترة اسكتلندية. وكما في المرة الأولى، انسللت إلى الصف الأول. لم يكن يستخدم المنصة، ولا مكبّر الصوت، وكان يطلق كلامه المنمّق بصوتٍ جهير معدّداً البضائع المعروضة أمامه: راغوندين[3]، حمل مغطّس، أرنب، ظربان،

1 Alsace – Lorraine

2 La Buffa

٣ Ragondin: حيوان ثديّ قارض في أميركا الجنوبية.

Twitter: @ketab_n

جزمات جلدية كلياً بسيطة ومبطّنة بالفرو. كانت البسطة أكثر اكتظاظاً بالبضائع منها البارحة وهذا الأشقر يجذب من الناس عدداً أكبر ممّا كان يجذبه فيلكور. يوجد قليل من الجلد، وكمية كبيرة من الفِراء. ربما ارتأوا أنّ فيلكور غير جدير ببيع الفراء.

كان هو يجري حسماً بنسبة عشرين في المئة على سترات الراغوندين وعلى طقم الحمل المغطّس مع صدار من الحمل؟ يوجد من كل الألوان: أَسود، أسمر محمرّ، كحلي، أخضر، برونزي، فوشيه، بنفسجي فاتح... وللمشترين علاوة هي كمية من الكستناء المحلاّة بالسكّر.

كان يتكلّم بوتيرة متسارعة سبّبت لي الدوار، وأفضى بي الأمر إلى الجلوس على رصيف المقهى المجاور حيث انتظرت زهاء ساعة قبل أن يتفرّق المتسكّعون. وكانت شمس النهار قد غابت منذ وقتٍ طويل.

كان وحيداً خلف البسطة. اقتربت منه:

– مقفل، قال لي. لكن إن كنت تريد شيئاً... لديّ سترات... بثمن بخس... حسم ثلاثين في المئة... سترات طويلة من جلد الحمل الناعم... بطانة حريرية، مقاس من ٣٨ إلى ٤٦... أتركها لك بنصف السعر...

لو لم أقاطعه لما كفّ عن الكلام. كان مندفعاً في حماسته.

Twitter: @ketab_n

– أتعرف فريدريك فيلكور؟ قلت له.

– كلا.

شرع في تكديس الفراء والسترات بعضها فوق بعض.

– غير أنه كان هنا، مكانك، بعد ظهر أمس.

– تعلم، إنّ عددنا كبير نحن العاملين في الكوت دازور لمصلحة "فرانس – كوير"[1].

توقفت الشاحنة الصغيرة على مستوى البسطة وترجّل منها السائق نفسه وزلق بوابة العربة.

– نهارك سعيد، قلت له. التقينا مساء أمس مع صديق لي... تأمّلني مقطّباً حاجبيه وبدا كأنه لا يتذكّر شيئاً.

– حتى إنك جئت لتأخذه من مقهى الفوريم.

– آه نعم، آه نعم، بالفعل...

– حَمِّلْ لي كل هذا بسرعة، قال الأشقر الطويل ذو رأس الحصان.

بدأ الآخر يتناول المعاطف والسترات قطعةً قطعة ويضع فيها التعاليق ثم يعلّقها في الشاحنة.

– ألا تعلَم أين هو؟

– ما عاد يعمل لدى "فرانس – كوير"...

---

١ France – Cuir: شركة فرنسا – للجلد.

Twitter: @ketab_n

أجابني بصوت جاف، كما لو كان فيلكور قد ارتكب خطأ فادحاً وكما لو أن العمل لدى "فرانس - كوير" كان امتيازاً حقيقياً.

- كنت أظنّ أن لديه عملاً ثابتاً...

كان الطويل الأشقر ذو رأس الحصان يسند مؤخرته إلى حافّة البسطة منهمكاً بتسجيل شيء ما على دفتر صغير. حسابات اليوم؟

أخرجت من جيبي بطاقة زيارة فيلكور.

- كان عليك أن تأخذه إلى بيته مساء أمس... ٥، جادة بوسكيه في أنتيب...

استمر السائق في توضيب المعاطف والسترات في الشاحنة ولم يتكرّم حتى بإلقاء نظرة عليّ.

- هذا فندق، قال لي، هنالك ينزل باعة "فرانس - كوير"... وهنالك يُحاطون علماً بالمكان الذي ينبغي أن يعملوا فيه أكان في كان[1] أو نيس...

ناولته معطف حمل، ثم سترة من جلد، ثم حذاءً مبطّناً بالفرو. لربّما قبِل إن ساعدته في تحميل الشاحنة بإعطائي بعض المعلومات الإضافية بخصوص فيلكور.

١ Cannes: مدينة ساحلية قريبة من نيس تقع بينهما مدينة أنتيب.

Twitter: @ketab_n

– كيف تريد أن يكون لديّ الوقت الكافي لمعرفتهم جميعاً...؟ هناك تناوب... حوالي عشرة في الأسبوع... نراهم ليومين أو ثلاثة... ثم يذهبون... يحل مكانهم آخرون... هذا العمل لا يتوقف مع "فرانس – كوير"... لدينا بضائع مُخزنة في أرجاء المنطقة... ليس في كان أو نيس فقط... في غراس[1]... في دراغينيان[2]...

– إذاً، لم تبقَ لي أي فرصة للقائه في أنتيب؟

– آه، كلا... لا بد أن يكون شخص آخر قد حلّ في غرفته... لعله السيد...

وأشار إلى الطويل الأشقر ذي رأس الحصان الذي لا يزال يسجّل ملاحظات على دفتره الصغير.

– وما من وسيلة لمعرفة أين هو؟

– أمرٌ من اثنين... إما أنه ما عاد يعمل لدى "فرانس – كوير"، طردوه لأنه لم يكن "بائعاً" مرضياً...

كان قد فرغ من تعليق معاطفه وستراته في الشاحنة وأخذ يمسح العرق عن جبينه بطرف شاله.

١ Grasse: مدينة صغيرة في جنوب فرنسا تبعد بضعة كيلومترات عن البحر المتوسط.

٢ Draguignan: مدينة صغيرة قرب كان ونيس.

Twitter: @ketab_n

– أو أنهم أرسلوه إلى مكان آخر... لكن إن سألت الإدارة فلن يقولوا لك شيئاً... سرّ المهنة... ثم إنك لست من العائلة، كما أفترض.

– لا.

كانت لهجته قد لانت. وأقبل الطويل الأشقر ذو رأس الحصان نحونا وانضمّ إلينا.

– حمّلت كل شيء؟

– نعم.

– إذاً، فلنذهب...

صعد إلى مقدّمة الشاحنة الصغيرة، وزلق الآخر البوّابة وتثبّت من أنها مقفلة بإحكام، ثم صعد بدوره ومال برأسه نحوي من خلال زجاج النافذة المنفرج.

– أحياناً ترسلهم "فرانس – كوير" إلى الخارج... لديهم مستودعات في بلجيكا... إذا اتّفق ذلك يكونون قد أرسلوه إلى بلجيكا...

هزّ كتفيه استخفافاً وانطلق. تابعت بالنظر الشاحنة الصغيرة إلى أن توارت عند منعطف لا برومناد ديزنغليه.

Twitter: @ketab_n

كان الجوّ دافئاً. مشيت حتى حديقة ألزاس - لورين حيث جلست على مقعد، وراء المراجيح وحوض الرمل. أحبّ هذا المكان، بسبب الصنوبر الظليل والمباني التي تبرز بوضوح في السماء. أحياناً كنت آتي إلى هنا بعد الظهر لأجلس مع سيلفيا. كنا في أمان وسط كل هؤلاء الأمهات اللواتي يراقبنَ أولادهن. وما كان لأحد أن يبحث عنا في هذه الحديقة، والناس، من حولنا، ما كانوا ليعيروننا انتباهاً. ونحن أيضاً كان بوسعنا، في نهاية المطاف، أن ننعم برؤية الأطفال وهم ينزلقون على المزالق أو يبنون قصوراً من رمل.

في بلجيكا... إن اتفق ذلك يكونون قد أرسلوهم إلى بلجيكا... تخيّلت فيلكور، مساءً، تحت المطر، يبيع على عجل حاملات مفاتيح وصوراً خلاعية في حيّ محطة ميدي، في بروكسل. لم يكن سوى ظلّ نفسه، لم تفاجئني الكلمة التي تركها لي، هذا الصباح، في الكراج: "لن تسمع شيئاً عني بعد الآن". كنت قد حدست ذلك. وأكثر ما يدهش أنه كتبها لي، هذه الكلمة، وبناءً على ذلك فهي تشكّل دليلاً مادياً على بقائه حيّاً.

Twitter: @ketab_n

عندما كان يقف وراء بسطته، مساء أمس، لزمني بعض الوقت كيما أتعرّف عليه وأقنع نفسي بأنه كان هو حقاً. كنت أقف في الصف الأول من المتسكعين وأحملق فيه كما لو أنني أريد أن أذكّره بنفسه. وتحت هذه النظرة الثابتة كان مجبراً على أن يصبح مجدداً فيلكور القديم بذاته. واستمر في لعب هذا الدور خلال ساعات، فاتصل بي هاتفياً، لكن من دون حماسة. وهو الآن، في بروكسل، يسلك جادة أنسباك قاصداً محطة الشمال ليركب قطاراً كيفما اتفق. ويجد نفسه في مقصورة مسودّة بالدخان مع مسافرين من أهل التجارة يلعبون الورق، بينما يتحرك القطار نحو وجهة مجهولة...

أنا أيضاً كنت قد فكّرت في بروكسل كيما ألجأ إليها مع سيلفيا، غير أننا فضّلنا عدم مغادرة فرنسا. وكان ينبغي اختيار مدينة كبيرة لا نلفت فيها الأنظار. ونيس مدينة يقطنها أكثر من خمسمائة ألف نسمة يمكننا الاختفاء وسطهم. لم تكن مدينة كغيرها من المدن. فضلاً عن وجود البحر المتوسط...

ثمة نافذة مضيئة في الطابق الثالث من البناية التي تقع عند تقاطع الحديقة الصغيرة العامة وجادة فيكتور هيغو، حيث تسكن السيدة أفلاطون بيه. أما زالت على قيد الحياة؟ يتعيّن عليّ أن

Twitter: @ketab_n

أقرع الباب أو أسأل البوّابة. تأمّلت النافذة المضاءة بضوءٍ أصفر. قديماً، عند وصولنا إلى هذه المدينة، كانت السيدة أفلاطون بيه قد استسلمت لأهوائها منذ زمنٍ بعيد، وإني لأتساءل إن كانت تحتفظ منها بذكريات مبهمة. كانت شبحاً مُحبَّباً إلى النفس بين آلاف الأشباح الأخرى التي تسكن نيس. أحياناً كانت تأتي للجلوس على مقعد بالقرب منا في حديقة ألزاس – لورين هذه. الأشباح لا تموت. سيبقى النور منبعثاً من نوافذهم على الدوام، كما ينبعث من نوافذ كل هذه المباني ذات اللون الأمغر أو الأبيض التي تحيط بي والتي تحجب أشجارُ الصنوبر الظليلة في الحديقة الصغيرة نصفَ واجهاتها. نهضت. سرت بمحاذاة جادة فيكتور هيغو وأنا أعدّ أشجار الدُلب على نحوٍ آليّ.

في البداية، عندما التحقت بي سيلفيا هنا، كنت أرى إلى الأشياء بطريقة مغايرة لرؤيتي إياها هذا المساء. لم تكن نيس هذه المدينة المألوفة حيث أمضي قاصداً ردهة الماجستيك وغرفتي ذات المكيّف الذي لا فائدة منه. من حسن الحظ أن فصول الشتاء معتدلة في الكوت دازور فلا أبالي بالنوم متدثّراً بمعطفي. إنما خوفي من الربيع. فهو يعود في كل مرّة كموجة القعر، وفي كل مرّة أتساءل إن لم أكن على وشك السقوط فيها.

كنت أعتقد أن حياتي قد تأخذ مجرىً جديداً ويكفي أن أبقى

Twitter: @ketab_n

بعض الوقت في نيس لمحو كل ما سبق. وقد أفضى بنا الأمر إلى عدم الإحساس بالعبء الذي يثقل علينا. في ذلك المساء كنت أمشي بخطى أسرع من مشيتي اليوم. مررت في شارع غونو[1] أمام صالون الحلاقة، وكان ضوء نيونه الوردي ما زال يتلألأ. لم أتمالك نفسي عن تفحّصه قبل أن أتابع سيري.

لم أكن شبحاً يومها، كما أنا هذا المساء. كنت أقول في نفسي إننا سوف ننسى كل شيء ونبدأ كل شيء من الصفر في هذه المدينة المجهولة. البدء من الصفر – تلك هي العبارة التي كنت أردّدها سالكاً شارع غونو بخطى متسارعة.

"إلى الأمام" قال لي عابر سبيل سألته عن الطريق إلى المحطة. إلى الأمام. كنت واثقاً من المستقبل. وكانت هذه الشوارع جديدة عليّ. ولا أهمية البتّة إن توجّهت قليلاً كيفما اتفق، فقطار سيلفيا لن يصل إلى محطة نيس إلا في الساعة العاشرة والنصف مساءً.

كان كل ما معها من متاع السفر حقيبة كبيرة من جلد لونه أحمر رمّاني، وفي عنقها صليب الجنوب. كنت خجلاً من رؤيتها وهي تتقدم نحوي، فقبل أسبوع تركتها في أحد فنادق أنّسي[2] لأنني

1 Rue Gounod

٢ Annecy: بلدة تقع جنوب شرق فرنسا في منطقة رون – ألب.

Twitter: @ketab_n

أردت الذهاب وحدي إلى نيس للتأكد من أننا نستطيع الاستقرار في هذه المدينة.

كان صليب الجنوب يلمع على النسيج الأسود لفتحة قبّة المعطف. التقطت نظرتي فابتسمت وأنزلت ياقتها. كان من التهوّر حمل هذه الجوهرة على سبيل التباهي. ماذا إذا كانت جالسة في القطار قبالة جواهري ولفتت نظره؟ أمام هذه الفكرة الخرقاء انتهى بي الأمر إلى أن أبتسم أنا أيضاً. أخذت منها حقيبة السفر.

– ألم يكن في مقصورتك جواهري؟

تفرّستُ في وجوه المارة القلائل الذين نزلوا من القطار في محطة نيس، وكانوا يسيرون على الرصيف حولنا.

في التاكسي مرّت بي لحظة من التخوّف. قد لا تعجبها الغرفة المفروشة التي استأجرتها. لكن من الأفضل أن نسكن في هذا النوع من الأماكن بدل الإقامة في فندق يمكن لموظفيه أن يلحظونا.

مضت التاكسي في الطريق التي أجتازها في الاتجاه المعاكس اليوم: جادة فيكتور هيغو، حديقة ألزاس – لورين. كان ذلك في الفترة نفسها من السنة، أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وكانت أشجار الدُلب عارية من أوراقها، مثلما هي هذا المساء.

Twitter: @ketab_n

نزعتْ من عنقها صليب الجنوب وأحسستُ في راحة يدي بتماس السلسلة والماسة.

– خذه... وإلا أضعته...

دسستُ بحذر صليب الجنوب في جيب سترتي الداخلي.

– أتذكرين إن كان في مقصورتك جواهري يجلس قبالتك؟

أسندت رأسها إلى كتفي. كانت التاكسي قد توقفت عند منعطف شارع غونو لكي تفسح الطريق لسيارات أخرى قادمة من جهة الشمال. وفي بداية الشارع كانت واجهة صالون الحلاقة تتلألأ بنور نيونها الوردي.

– على أيّ حال، لو كنتُ أجلس قبالة جواهري لظنّ أنه من بورما...

همستْ بهذه الجملة في أذني لكي لا يسمع السائق شيئاً، وبلهجة كان فيلكور يصفها بأنها ريفية، وذلك حينما كان هو يريد أن يظهر فيها متميزاً، تلك اللهجة التي أحبها أنا كثيراً لأنها كانت لهجة الطفولة.

– نعم، لكن تصوّري لو أنه رغب في تفحّصه عن كثب... بواسطة عدسة مكبّرة...

– لكنت قد أجبته بأنه حلية عائلية.

Twitter: @ketab_n

توقفت التاكسي في شارع كافاريلّي[1]، أمام فيلا سانت – آن[2]، غرف مفروشة. بقينا لحظة واقفين على الرصيف، وكنت أحمل حقيبة سفرها.

– الفندق في آخر الحديقة.

خشيت أن يخيب أملها. لكن لا. أخذت هي بذراعي، ودفعتُ أنا السياج المشبك الذي انفتح محدثاً حفيف أوراق، ومضينا في الممر المظلم حتى المبنى الصغير الذي يضيئه مصباح كهربائي فوق كوّة المدخل الزجاجية.

مررنا أمام الشرفة. كانت الثريا مضاءة في الصالون حيث سبق للمالكة أن استقبلتني عندما استأجرت الغرفة لمدة شهر.

درنا حول المبنى من دون أن نلفت الانتباه. فتحت الباب الخلفي وصعدنا سلّم الخدمة. كانت الغرفة في الطابق الأول آخر الرواق.

جلستْ على أريكة جلدية قديمة. لم تخلع المعطف. نظرت حولها كما لو أنها تريد أن تألف المنظر. كانت النافذتان اللتان تطلان على حديقة المبنى محجوبتين بستائر سوداء. وكانت الجدران مغطاة بورق ملوّن مطبّع بزخارف وردية ما عدا الجدار

1 Rue Caffarelli

2 Villa Sainte-Anne

Twitter: @ketab_n

الخلفي حيث يذكّر الخشب ذو اللون الفاتح بمنزل للترفيه في الجبل. وليس في الغرفة من أثاث آخر سوى الأريكة الجلدية والسرير القليل العرض ذي القضبان النحاسية.

كنت جالساً على حافة السرير، أنتظر أن تتكلم.

– على أي حال، لن يأتوا للبحث عنا هنا.

– بالتأكيد لا، قلت لها.

أردت أن أفصّل لها مزايا المكان لأزداد به اقتناعاً أنا نفسي: دفعت إيجار شهر سلفاً... هذه غرفة مستقلة... سوف نحتفظ بالمفتاح دائماً... المالكة تسكن في الطابق الأرضي... سوف تدعنا وشأننا...

لكن لم يبدُ عليها أنها تصغي إليّ. كانت تتأمل الثريا التي تلقي علينا ضوءاً خافتاً، ثم تنظر إلى الأرضية الخشبية، فالستائر السوداء.

كانت لا تزال متدثرة بمعطفها حتى ليُظنّ أنها ستغادر الغرفة بين لحظة وأخرى، وخشيت أن تتركني وحيداً على هذا السرير. بقيتْ جالسةً من دون أن تأتي بحركة، ويداها مبسوطتان على ذراعيّ الأريكة. وعبّرت نظرتها عن شعور بالإحباط، كنت أعانيه أنا أيضاً.

كان يكفي أن تنظر إليّ لكي يتغيّر كل شيء. ربما كانت تشعر بأننا نعاني الأشياء نفسها في الوقت عينه. ابتسمت لي

Twitter: @ketab_n

وقالت بصوتٍ خفيض، كما لو أنها تخشى أن يسترق أحدهم السمع من وراء الباب:

- يجب أن لا نقلق.

انقطعت الموسيقى وصوت المذيع الخفيض في الطابق الأرضي للمبنى. لقد أطفأوا جهاز التلفزيون أو الراديو. كنا مستلقيَيْن كلانا على السرير. وكنت قد أزحت الستائر، ليدخل عبر النافذتين ضوءٌ خافت اخترق عتمة الغرفة. كنت أرى جانب وجهها. وكانت تمدّ ذراعيها إلى الوراء محيطةً بيديها قضبان السرير، وصليب الجنوب في عنقها. كانت تفضّل أن تحمله أثناء نومها: هكذا، لن يغامر أحد بسرقته منها.

- ألا تلاحظ أن المكان يفوح برائحةٍ غريبة؟ سألتني.

- بلى.

عندما زرت هذه الغرفة للمرة الأولى علقت بحنجرتي رائحة عفن. فتحت النافذتين لإدخال قليلٍ من الهواء البارد، غير أن ذلك كان بلا جدوى. كانت الرائحة تنفذ من الجدران وجلد الأريكة والغطاء الصوفي.

اقتربتُ منها وسرعان ما طغى عطرها على رائحة الغرفة، عطر ثقيل لم يعد بوسعي الامتناع عنه، شيء ما عذب وغامض، مثل الوشائج التي تربط أحدنا بالآخر.

Twitter: @ketab_n

هذا المساء يُعقد في بَهو الماجستيك الاجتماع الأسبوعي لجمعية "أراض بعيدة". وبدلاً من أن أصعد إلى غرفتي كان بإمكاني الجلوس على أحد المقاعد الخشبية – المماثلة لمقاعد الحديقة الصغيرة العامة – والإصغاء إلى المُحاضِر وسط حواليّ مئة شخص تجمّعوا هناك وقد وضع كل واحد منهم على طيّة معطفه زراً أبيض كُتب عليه حرفا (أ. ب) باللون الأزرق. لكن لم يبقَ ثمة مكان واحد فارغ فانسللتُ ملامساً الجدار حتى الدرج.

غرفتي الحالية تشبه الغرفة التي كنت أقيم بها في فندق سانت – آن العائلي، في شارع كافاريلّي، تطفو فيها نفس الرائحة، في الشتاء، بسبب الرطوبة وقِطع الأثاث الرثّة المصنوعة من خشبٍ قديم وجلدٍ بالٍ. للأماكن تأثير عليك بمرور الزمن، لكن في شارع كافاريلّي، مع سيلفيا، كانت حالتي الذهنية مختلفة. في هذه الأيام يراودني في كثير من الأحيان الشعور بأنني أتعفّن في مكاني، عندها أحتكم إلى العقل، وفي طرفة عين يتبدّد هذا الانطباع ولا يبقى سوى شعور بالانفصال، إحساس بالسكينة والخِفّة، لا أهميّة لشيء بعد الآن. أيام شارع كافاريلّي كنت

Twitter: @ketab_n

أصاب بالإحباط أحياناً، غير أن المستقبل كان يبدو لي زاهراً. كنا نتوصّل في النهاية إلى الخروج من تلك الحالة حيث كنّا تواجد. لم تكن نيس في نظرنا إلا مرحلة نواصل بعدها المسير. سوف نغادر هذا المكان على وجه السرعة متوجّهين إلى خارج البلاد. كنت أخادع نفسي، ولم يدر في خلدي أن هذه المدينة ما هي إلا مُسْتنقع سوف أغوص فيه شيئاً فشيئاً؛ وأن المسار الوحيد الذي سوف أسلكه خلال كل تلك السنوات هو المسار المؤدي من شارع كافاريلّي إلى جادة سيميه، حيث أعيش حالياً.

غداة وصول سيلفيا كان يوم أحد. ذهبنا عصراً للجلوس على رصيف مقهى في جادة لا برومناد ديزنغليه، الرصيف نفسه الذي كنت قد رأيت منه ذات مساء ليس ببعيد فيلكور أثناء مروره متقلّداً جِرابَه الجلدي. وما لبث أن اختفى في غمار الظلال التي كانت تمرّ بنا عكس الضوء هؤلاء الرجال والنساء الذين يشبهوننا، سيلفيا وأنا، والذين كانوا يبدون لنا عجائز متقدّمين في السِنّ... شعرت بالخوف وأنا أغلق بابَ غُرفتي، وتساءَلت: هل أصبحتُ منذ الآن واحداً منهم؟ في ذلك المساء كانوا يحتسون ببطء شايهم إلى طاولات قريبة من طاولتنا. راقبناهم، سيلفيا وأنا، هم والآخرين الذين كانوا لا يزالون يتدفقون إلى لا برومناد ديزنغليه. كان ذلك غروب يوم أحد في فصل الشتاء. وكنت أعلم

Twitter: @ketab_n

أننا نفكّر في الشيء نفسه: علينا أن نجد، من ضمن كل هؤلاء الناس الذين يتسكعون على طول شاطئ الكوت دازور، شخصاً ما نبيعه صليب الجنوب.

استمرّ هطول المطر أياماً عِدّة بلا انقطاع. ذهبت لشراء الصحف من الكشك الكائن عند طرف حديقة ألزاس – لورين وعدت إلى فندق سانت – آن تحت المطر. وجدت المالكة تُطعم طيورها. كانت ترتدي مُشمّعاً قديماً واقياً وتلفّ ذقنها بشال اتّقاءً للمطر. امرأة في حوالي الستين من العمر، أنيقة المظهر، تتكلم بلهجة أهل باريس. أشارت إليّ بذراعها قائلةً: "صباح الخير"، ثم تابعت فتح أبواب الأقفاص واحداً تلو الآخر، وإلقاء الحبوب فيها، ثم إغلاقها. هي أيضاً أيّة ريح جنحت بها إلى نيس؟

عندما كنّا نستيقظ في الصباح، ونسمع طرطقة قطرات المطر المتساقطة على صفيح توتياء المرأب الصغير في الحديقة، نعلم أن الحال سيبقى على هذا المنوال طيلة النهار، وغالباً ما كنا نبقى في السرير إلى ما بعد الظهر. كنا نفضّل الانتظار حتى حلول الظلام لنخرج. في النهار يبعث المطر المتساقط على جادة لا برومناد ديزنغليه، وعلى أشجار النخيل، وعلى المباني المنيرة، في القلب مشاعر الحزن. يُبلّل المطر الجدران ولا يلبث منظر الأوبريت وألوان الحلوى أن تتحلّل كلياً. أما الليل فيطمس هذه

Twitter: @ketab_n

المناظر الكئيبة بفضل الألوان وأضواء النيون.

المرّة الأولى التي شعرت فيها أننا وقعنا في مصيدة، في هذه المدينة، كانت تحت المطر، في شارع كافاريلّي، عندما ذهبت لجلب الصحف. لكن عاودتني الطمأنينة حالما عدتُ. وجدت سيلفيا تقرأ رواية بوليسية، وقد أسندت ظهرها إلى قضبان السرير، ومالت برأسها. لن أخشى شيئاً ما دامت معي. كانت ترتدي كنزة مغلقة القبّة ذات لون رمادي فاتح تشدّ صدرها بإحكام ما جعلها أكثر نحافةً وأشدّ تبايناً مع شعرها الأسود وبريق عينيها الزرقاوين.

– لا شيء في الصحف؟ سألتني.

تصفّحتُها جالساً على حافة السرير وقلت:

– لا، لا شيء.

Twitter: @ketab_n

اختلطت الأمور بعضها ببعض، صور الماضي تتداخل في عجينة خفيفة وشفّافة تنفصم وتنتفخ وتتّخذ شكل بالون ملوّن بألوان قوس قُزَح، يوشك أن يتفجر. استيقظت مذعوراً وقلبي يخفق بشدة. فاقمَ الصمت قلقي. ما عدت أسمع المحاضِر في "أراضٍ بعيدة" الذي كان صوته الرتيب يصل إلى غرفتي عبر المذياع. هذا الصوت وموسيقى الفيلم الوثائقي الذي تلاه – لا ريب في أنه فيلم عن المحيط الهادئ بدليل أنين قيثارات الهاواي – ما لبثا أن هدهداني فخلدت إلى النوم مجدداً.

ما عدت أذكر متى التقينا آل "نيال" قبل أو بعد وصول فيلكور إلى نيس. بحثت طويلاً في ذاكرتي محاولاً العثور على نقاط استدلال، غير أنني لم أتمكّن من التفريق بين الحدثين. أبداً. ثم إن هذه الكلمة غير ملائمة. كلمة حدث تعني شيئاً ما عنيفاً ومشهدياً. لكن لا، كل شيء جرى بلطف، وعلى نحو غير محسوس، كما تُحبَك على شبكة التطريز زخارف نسيج مُوشّى، وكما يتقاطر المارّة على رصيف لا برومناد ديزنغليه، أمامنا.

قرابة الساعة السادسة مساءً كنا جالسين إلى طاولة على

Twitter: @ketab_n

رصيف مقهى كيني[1] المزجّج. كان ضوء المصابيح البنفسجي يرتعش، والوقت ليلاً. وكنا ننتظر شيئاً لا نعرف ما هو على وجه الدقة، مثل كثيرين لا يُحصَون عدداً من الأشخاص الذين كانوا، هم أيضاً، يجلسون منذ سنوات على الرصيف نفسه: لاجئون في منطقة حرّة، منفيّون، إنكليز، روس، شبان يعتاشون على نفقة عشيقاتهم المُسنّات، مديرو قمار كورسيكيون في فندق باليه دو لا مديترانيه[2] الفخم. بعضهم لم يغادروا المكان منذ أربعين سنة وهم يحتسون شايهم إلى طاولات قرب طاولتنا بحركات صغيرة متقطّعة. وعازف البيانو؟ منذ متى يوقّع أنغامه ما بين الساعة الخامسة والساعة الثامنة مساءً في أقصى الصالة؟ دفعني الفضول إلى سؤاله. "من زمان"، قال لي. كان هذا جواباً تملّصياً. كما يجيب أحد ما يعرف الكثير عمّا سُئل عنه ويريد أن يكتم سِرّاً مُورِّطاً. إجمالاً، كان الرجل على شاكلتنا، سيلفيا وأنا. وكان كلما رآنا يومئ إلينا إيماءة تواطؤ: هزّة رأس ودّية، أو نغمات يوقّعها بضربات قوية على مفاتيح البيانو.

في ذلك المساء بقينا إلى وقت متأخر بخلاف المعتاد. وشيئاً فشيئاً غادر الزبائن الصالة ولم يبقَ فيها إلا نحن وعازف البيانو.

1 Queenie

٢ Palais de la Méditerranée : فندق البحر الأبيض المتوسط.

Twitter: @ketab_n

كان وقتاً تخلو فيه الصالة قبل ظهور أول الزبائن القادمين لتناول العشاء. أنهى النُّدُل وضع الطاولات في قسم "المطعم" من المُنشأة، وكنا نحن لا نعرف كيف نملأ تلك السهرة. هل نعود إلى غرفتنا في فندق سانت – آن؟ أم نحضر حفلة المساء في سينما لا فوريم؟ أو ننتظر، بكل بساطة؟

اختارا طاولة بالقرب من طاولتنا، وجلسا جنباً إلى جنب قُبالتنا. بدا مظهره هو مهملاً بقميصه الرياضي المصنوع من جلد الأيّل، وكان وجهه شاحباً كما لو أنه عائد من سفر بعيد أو لم ينم منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. أما هي فكانت على النقيض متأنّقة جداً. تصفيفة شعرها ومكياجها يوحيان بأنها ذاهبة إلى حفلة ساهرة، وكانت ترتدي معطفاً يبدو أنه من فرو السِّنَّوْر السيبيري الفاخر.

حدث ذلك بطريقة عادية وطبيعية جداً. ظننت أن نيال جاء يطلب مني ناراً. ولم يكن على الرصيف أحد سوانا، نحن وهما، وقد أدركا أن وقت الإقفال قد حان.

– إذاً، لا يمكننا حتى أن نحتسي كأساً؟ قال نيال مبتسماً. لقد أُهملنا تماماً.

تقدّم نادل نحو طاولتهما بخطىً متثاقلة. أذكر أن نيال طلب فنجاني قهوة، ما أكّد ظني أنه لم ينم منذ وقتٍ طويل. في أقصى المكان كان عازف البيانو يوقّع على المفاتيح الموسيقية ذاتها،

Twitter: @ketab_n

ولا شك في أنه يفعل ذلك لكي يتأكد من أن آلته جيّدة الضبط. لم يحضر أي زبون للعشاء. وفي الصالة كان النُّدُل ينتظرون واقفين في أماكنهم، وأنغام البيانو تتكرّر من دون تغيير... وكانت السماء تمطر على لا برومناد ديزنغليه.

– لا يمكن القول إن الجو هنا مريح، لاحظ نيال.

كانت هي تدخّن، في صمت، إلى جانبه؛ وتبتسم لنا. ثم تجاذبنا، نحن ونيال، أطراف الحديث:

– أنتما من سكان نيس؟

– وأنتما؟

– نعم. أنتما في إجازة هنا؟

– في نيس، المطر محزن.

– لعلّ بإمكانه أن يعزف لحناً آخر، قال نيال. إنه يسبّب لي الصداع.

نهض ودخل إلى الصالة قاصداً عازف البيانو. وما زالت المرأة تبتسم لنا. ولدى عودة نيال سمعنا النغمات الأولى لمعزوفة "غريب في الليل"[1].

– هل تعجبكما هذه الموسيقى؟ سألنا.

أحضر النادل المشروبات المطلوبة وعرض علينا نيال أن

١ بالإنكليزية في الأصل: Stranger in the Night

Twitter: @ketab_n

نحتسي كأساً معهما. وهكذا انتقلنا إلى طاولتهما، سيلفيا وأنا. لم تكن كلمة "لقاء" هي اللفظة المناسبة لوصف الموقف شأنها في ذلك شأن كلمة "حدث". نحن لم نلتقِ السيّد والسيّدة نيال. لقد اندسّا في شباكنا. إن لم يكونا آل نيال هذا المساء، ففي الغد أو بعده سيكون مكانهما أشخاص آخرون. أمضينا أياماً وأياماً متربّصين، سيلفيا وأنا، في أماكن عبور: صالات وبارات الفنادق... ويبدو لي، اليوم، أننا نسجنا شبكة عنكبوتية هائلة وغير مرئية وكنا ننتظر أن يسقط فيها شخص ما.

كانا يتكلمات كلاهما بلكنة أجنبية خفيفة. وخلصت إلى سؤالهما:

– أنتما إنكليزيان؟

– أميركي، قال لي نيال. زوجتي إنكليزية.

– نشأت على الكوت دازور، قالت مصحّحة. لستُ إنكليزية تماماً.

– وأنا لستُ أميركياً بالكامل، قال نيال. أقيم منذ مدة طويلة في نيس.

نَسِيا حضورنا، ثم في اللحظة التالية كلّمانا برقّة ودّية. هذا المزيج من الذهول والاغتباط يُفسَّر لديهما بالحالة غير الطبيعية التي تحدث نتيجة التعب الشديد وتغيير نظام التوقيت: أمسِ كان

Twitter: @ketab_n

لا يزال في أميركا، قال لنا، وزوجته ذهبت لاستقباله في مطار نيس هذا المساء بالذات. لم تكن تتوقّع عودته بهذه السرعة. وكانت تستعدّ للخروج مع بعض الأصدقاء عندما اتّصل بها هاتفياً من المطار. لهذا السبب كانت ترتدي فستان السهرة ومعطف الفرو هذين.

– من وقت إلى آخر يتعيَّن عليّ السفر إلى الولايات المتحدة، أوضح نيال.

هي أيضاً كانت تعطي الانطباع بأنها مترنّحة نوعاً ما، أكان ذلك بسبب خمرة المارتيني التي شربتها جرعةً واحدة؟ أم لجهة المزاج الحالم والغريب الأطوار الذي يتّصف به الإنكليز؟ ومرّة أخرى تمثّلت في خاطري صورة الشبكة العنكبوتية غير المرئية التي نصبناها، سيلفيا وأنا. لقد أقبلا للوقوع في حبائلهما من دون أن يُبديا مقاومةً تُذكر. حاولتُ أن أتذكّر طريقة ظهورهما على رصيف المقهى هذا. ألم يبدُ عليهما أنهما تائهان ويتمايلان في مشيهما؟

– أعتقد أنني لن أستطيع الذهاب معك للقاء أصدقائك، قال نيال لزوجته.

– لا أهمية لذلك. سوف أُلْغي الموعد معهم.

شرب فنجاناً ثالثاً من القهوة.

Twitter: @ketab_n

– أشعر بتحسُّن... من الممتع حقاً أن يضع المرء قدميه على الأرض الصلبة ثانيةً... أنا لا أحتمل الطائرة.

تبادلنا نظرة، سيلفيا وأنا. لم ندرِ ما إذا كان علينا أن نستأذن بالانصراف، أم نبقى صحبتهما. أيرغبان في أن يتعرّفا إلينا أكثر؟

انطفأت أنوار الرصيف المزجّج بكبسة على قاطع التيار، ما عدا أنوار المطعم التي غمرتنا بظلٍّ خفيف.

– إذا أحسنتُ الفهم، فإنهم يريدون أن يطردونا، قال نيال.

فتّش في جيوب قميصه.

– عجباً... ليس لديّ عملة فرنسية.

هممت بأن أسدّد حسابنا غير أن السيدة نيال كانت قد أخرجت من حقيبة يدها رزمة من الأوراق المالية الفرنسية، ووضعتها بلا اكتراث على الطاولة.

نهض نيال. في هذا الظل الخفيف بدا وجهه وقد غضّنه التعب.

– حان وقت العودة. ما عدتُ قادراً على الوقوف.

أخذت زوجته بذراعه وتبعناهما.

كانت سيارتهما مركونةً في مكان أبعد قليلاً، في لا برومناد ديزنغليه، على مستوى ذلك المصرف الإيراني الذي تعلن واجهته المغبرّة أنه مُقفل منذ زمنٍ بعيد.

Twitter: @ketab_n

– سُررتُ بالتعرّف إليكما، قال لنا نيال. لكن يا للعجب، لديّ انطباع بأننا التقينا من قبل.

ثم ركّز نظرة على سيلفيا. هذا ما أتذكّره جيّداً.

– أتريدان أن نوصلكما إلى مكانٍ ما؟ سألت زوجته.

قلت لهما أن لا حاجة بنا إلى ذلك. خشيتُ أن لا نتمكّن من التخلّص منهما، سيلفيا وأنا. فكّرت في أولئك السكارى الذين يتعلّقون بك ويريدون أن يجرّوك معهم لشرب كأس أخيرة في كل حانة. ومع ذلك، ما هو القاسم المشترك بين سكارى مبتذلين والزوجين نيال؟ كانا متأنّقين جداً ووديعين.

– في أي حيّ تسكنان؟

– في اتجاه جادّة غامبيتا.

– هذه طريقنا، قالت زوجته. نحن نوصلكما إذا أردتما...

– حسناً، قالت سيلفيا.

فوجئت بلهجتها القاطعة. جذبتني من ذراعي، رغماً عني، إلى داخل السيارة لنجدنا مستقرين في المقعد الخلفيّ. تولّت زوجة نيال القيادة.

– أفضّل أن تقودي أنتِ، قال نيال. أشعر بأنني مُتعب جداً بحيث يمكن أن أعرّضكم لخطر الاصطدام.

Twitter: @ketab_n

مررنا في مُحاذاة لوكيني[1] الذي أُطفئت كل أنواره ثم أمام فندق البحر الأبيض المتوسط. كانت قناطره مسدودة بقضبان الحديد. وبدا المبنى ذو النوافذ المزيّفة والستائر المطويّة مرصوداً للهدم.

– تسكنان في شقّة؟ سألتْ زوجة نيال.

– لا. نقيم في فندق حالياً.

استغلّتْ زوجة نيال لحظة التوقف عند إشارة المرور الحمراء في شارع كرونستاد[2] لكي تدير رأسها نحونا. كانت تفوح منها رائحة الصَنوبر، وتساءلتُ عمّا إذا كانت تلك الرائحة هي رائحة جسدها أم رائحة معطفها الفرو.

– نحن نسكن في فيلا، قال نيال، ويسعدنا أن نستضيفكما.

كان صوته مخنوقاً جرّاء التعب الذي فاقم أيضاً لُكنتَه الأجنبية.

– ستبقيان في نيس مدّةً طويلة؟

– نعم، نحن في إجازة، قلتُ.

– أنتما من سكّان باريس؟ سأل نيال.

لماذا يطرحان علينا هذه الأسئلة؟ منذ قليل لم يُظهرا أي فضول خاص في ما يتعلّق بنا. ساورني القلق رُوَيداً رويداً، وأردت أن أعطي سيلفيا إشارة بهذا الخصوص. سوف ننزل من السيارة عند

١ مطعم ومقهى في لابرومناد ديزنغليه.

2 Rue de Cronstadt

Twitter: @ketab_n

إشارة المرور التالية. وإذا ما كانت أبواب السيارة مقفلة؟

– نحن نسكن في المنطقة الباريسية، قالت سيلفيا.

بدّدت لهجتُها الهادئة مخاوفي. شغّلت زوجة نيال مَسّاحتَي الزجاج بسبب المطر، وما لبثت حركتهما المنتظمة أن طمأنتني.

– بالقرب من مارن – لا – كوكيت[1]؟ سأل نيال. سبق لنا، زوجتي وأنا، أن أقمنا في مارن – لا – كوكيت.

– لا. مطلقاً، قالت سيلفيا. شرق باريس، على ضفة المارن.

أطلقت هذه العبارة كما لو أنها تحدٍّ وابتسمت لي، واندسّتْ يدها في يدي.

– لا أعرف ذلك المكان أبداً، قال نيال.

– إنه يمتاز بجمالٍ آسِر، قلتُ.

– أين يقع، بالضبط؟ سأل نيال.

– في لا فارين – سان – هيلار[2]، قالت سيلفيا بصوت واضح.

ولماذا لم نردّ على الأسئلة بطريقة طبيعية جداً؟ لماذا كان علينا أن نكذب؟

– لكنْ نحن لا ننوي العودة إلى هناك، أضفتُ. نريد أن نبقى في الكوت دازور.

1 Marnes – la – Coquette

2 La Varenne – Saint – Hilaire

Twitter: @ketab_n

– الحق معكم، قال نيال.

شعرت بالارتياح. منذ زمنٍ بعيد لم نتبادل الحديث مع أحد حتى بتنا ندور في حلقة مفرغة في هذه المدينة كما لو أننا في قفص. لكن لا، لم نكن مصابَين بالطاعون. بإمكاننا أن نتحدّث إلى أحدٍ ما، وبوسعنا حتى أن نقيم علاقات جديدة.

دخلت السيارة شارع كافاريلّي ودللتُ السيدة نيال على بوّابة فيلا سانت – آن.

– هذا ليس فندقاً، قال نيال.

– لا. هذا نُزُل مفروش.

ندمت على استعمالي هذه الكلمة التي ربما أثارت ارتيابهما، قد تكون لديهما أحكام مسبقة على الناس الذين يسكنون شققاً مفروشة.

– أهو مريح نوعاً ما؟ سأل نيال.

لا، يبدو أن ليس لديهما أحكام من هذا النوع بقدر ما يضمران تعاطفاً معنا.

– هذا سكن مؤقت، قالت سيلفيا... نأمل في العثور على مسكن آخر.

كانت السيارة قد توقفت أمام نزل سانت – آن. أطفأت السيدة نيال المحرّك.

Twitter: @ketab_n

– يمكننا مساعدتكما في العثور على شقّة أخرى، قال نيال بصوت شارد. أليس كذلك يا باربرا؟

– بالتأكيد، قالت السيدة نيال. يجب أن نلتقي مجدداً.

– سأعطيكم عنواننا، قال نيال. يمكنكما الاتّصال بنا متى شئتما.

أخرج من جيبه حافظة أوراق أخرج منها بطاقة زيارة ناولني إياها.

– إلى اللقاء... آمل رؤيتكما في أقرب وقت...

كانت السيدة نيال قد مالت برأسها نحونا.

– أنا سعيدة حقاً بالتعرّف إليكما...

أكانت صادقة حقاً، أم أن الأمر لا يتعدّى المجاملة؟

كانا ينعمان النظر فينا، بصمت، في الوضعية ذاتها، ووجهاهما متقاربان.

لم أدرِ ما أقول، ولا درتْ سيلفيا. أعتقد أنهما وجدا أنّ من الطبيعي أن نبقى في السيارة أو أن بقاءنا أو ذهابنا سيّان. كانا على استعداد لقبول أي اقتراح من قِبلنا، وعلينا نحن أن نبادر. فتحت باب السيارة:

– إلى اللقاء، قلتُ..وشكراً على اصطحابنا.

قبل أن أفتح السياج المشبّك التفتُّ نحوهما وألقيت نظرة

Twitter: @ketab_n

على لوحة السيارة المعدنية. صدمني الحرفان: هـ/د. هذا يعني: هيئة دبلوماسية. لكن لوهلة خلطتُ بين هذه اللوحة ولوحة سيارة شرطة، وظننتُ أننا وقعنا في شرك، سيلفيا وأنا.

– هذه سيارة أعارنا إيّاها بعض الأصدقاء، قال نيال بنبرة مرِحة.

مدّ رأسه من خلال زجاج الباب المفتوح وتبسّم لي. لا بد أنه لاحظ أمائر الدهشة التي اعترتني لمّا رأيت اللوحة المعدنية. دفعت باب السياج لكنه لم يتحرك. برمت المقبض مراراً. أخيراً انفتح الباب بغتةً، بدفعة من الكتف.

أقفلنا المقبض وراءنا، ولم نتمالك، سيلفيا وأنا، أن ننظر إليهما مرّةً أخرى. كانا جالسين باستقامة داخل السيارة، جنباً إلى جنب، كأنهما متجمّدان.

عدنا مجدداً إلى رائحة الرطوبة والعفونة التي تملأ الغرفة. عند عودتنا، في نهاية تلك الأيام الفارغة، كان يستولي علينا في معظم الأحيان شعور بالوحدة مبعثه هاتين الرطوبة والعفونة. كنا نلتصق أحدنا بالآخر على هذا السرير الذي تصرّ نوابضُه وقُضبانه النحاسية ونخلص إلى الاقتناع بأن جلدَينا نفسيهما كانا مشبعَين بتلك الرائحة. وكنا قد اشترينا شراشف ضمّخناها بعطر الخُزامى. غير أن الرائحة لم تكن لتفارقنا.

Twitter: @ketab_n

هذه الليلة، كان كل شيء مختلفاً. للمرّة الأولى، منذ وصولنا إلى نيس، كسرنا الحلقة السحرية التي كانت تعزلنا وتخنقنا رُوَيداً رويداً. بدت لنا هذه الغرفة مؤقتة على نحو مفاجئ، وما عدنا بحاجة حتى إلى فتح النوافذ لتهوئتها، ولا أن نتغطّى بالشراشف المعطَّرة بأريج الخُزامى. لقد أبقينا الرائحة بعيدة عنا.

وضعتُ جبهتي على زجاج النافذة وأشرت بيدي إلى سيلفيا أن تقترب مني. خلف سياج الحديقة كانت سيارة الزوجين نيال لا تزال متوقّفة، ومحرّكها هامداً. عمَّ يتحدثان؟ ماذا ينتظران؟ هذه السيارة الرمادية التي لا تتحرك، هل تمثّل تهديداً؟ سنرى إلامَ ستؤول الأمور. كل شيء أفضل من هذه الحالة المضنية التي استسلمنا لها.

أخذ المحرّك يهدر. وبعد فترة طويلة انطلقت السيارة ثم توارت عند تقاطع شارع كافاريلّي وجادّة شكسبير[1].

1 Avenue Shakespeare

Twitter: @ketab_n

الآن بتُّ على يقين: لقد ظهر فيلكور بعد لقائنا الأول مع الزوجين نيال. كان هذا الحدث في الأسبوع التالي. لم نكن قد التقينا آل نيال مرة ثانية، إذ كان قد مضى حوالي عشرة أيام قبل أن نتمكّن من الاتّصال بهما هاتفياً ليحدّدا لنا موعداً للقاء.

حدث: هنا أيضاً الكلمة غير ملائمة. كان ينبغي الانتظار حتى نصادف فيلكور في طريقنا.

في الصباحات المشرقة كنا نذهب لقراءة الصحف على مقعد في حديقة ألزاس – لورين، قُرب المزلقة والأراجيح. هنالك ما كنّا نلفت الأنظار على أية حال، وكان غداؤنا عبارة عن سندويشات نأكلها في مطعم في شارع فرنسا[1]. ثم نركب حافلة نقل عام حتى شارع سيميبه أو المرفأ ونروح في نزهة على العشب الأخضر في حديقة أرين[2] أو في شوارع نيس القديمة. وقرابة الخامسة مساءً كنا نشتري قصصاً بوليسية مستعملة. ولمّا كان احتمال العودة إلى نُزُل سانت – آن يُثْقِل علينا، كانت خطواتنا تقودنا دائماً إلى

1 Rue de France

2 Jardin des Arènes

Twitter: @ketab_n

جادة لا برومناد ديزنغليه.

في نطاق الكوّة المزجّجة تبرز بوضوح في السماء أشجار النخيل في حديقة متحف ماسّينا[1]. سماء ذات زُرقة وضيئة أو سماء وردية وقت الغروب. وشيئاً فشيئاً تصبح أشجار النخيل ظلالاً قبل أن تلقي عليها المصابيح المعلّقة عند تقاطع البرومناد وشارع ريفولي[2] ضوءاً بارداً. يَتّفِق لي أيضاً أن أدخل إلى هذا البار عبر البوابة الخشبية الضخمة لشارع ريفولي لكي أتجنّب المرور في بهو الفندق. وكنت أجلس دائماً قبالة الكوّة المزجّجة. كما في ذلك المساء مع سيلفيا. لم تفارق أعيننا للحظة تلك الكوّة المزجّجة. كانت السماء المنيرة وأشجار النخيل شديدة التباين مع ظُلَيل البار. لكن في طرفة عين انتابني شعور بالقلق وإحساس بالاختناق. كنا مسجونين في حوض مائي لتربية النبات والأسماك ننظر من خلال زجاجه إلى النباتات في الخارج. ولم يعد بإمكاننا قطّ أن نتنشّق الهواء الطلق. ولقد أراحني من هذا العناء أنّ الليل قد هبط وأظلم الكوّة المزجّجة. عندئذٍ تلألأت أنوار البار كلها، وتحت أضوائها المشعشعة تبدّد القلق.

خلفنا، في المؤخّرة، كان باب المصعد المعدني ينزلق ببطء

1 Musée Masséna

2 Rue de Rivoli

Twitter: @ketab_n

مفسحاً المجال لمرور زبائن الفندق الذين كانوا ينزلون من غُرفهم. كانوا يجلسون إلى طاولات البار. وفي كل مرّة كنت أرقب الانزلاق البطيء والصامت وظهور الزبائن كما لو كنت أراقب منظومة من الساعات يبعث فيَّ انتظامُها الطمأنينة.

انفرج الباب المعدني عن قامة في بذلة رمادية غامقة تعرّفت إليها في الحال. لم أجرؤ على أن أومئ برأسي إلى سيلفيا لكي ترى، هي أيضاً، الرجل الذي خرج من المصعد: فيلكور.

أدار لنا ظهره واتّجه نحو بهو الفندق. اجتاز مخرج البار ولم يعد ثمة خطر في أن يلاحظ حضورنا. همست إلى سيلفيا:

– إنه هنا.

تمالكت نفسها. حتى ليمكن القول إنها كانت قد أعدَّت نفسها لهذا الاحتمال. وأنا أيضاً، من جهة ثانية.

– سوف أتحقّق إن كان هو حقاً...

هزّت كتفيها كما لو أنّ ذلك لا يفيد في شيء.

اجتزتُ بهو الفندق وكمنت خلف المدخل المزجّج. كان يقف على الرصيف، عند تقاطع لا برومناد ديزنغليه وشارع ريفولي، هنالك حيث تنتظر سيارات الأجرة الكبيرة. وكان يتحدّث إلى أحد السائقين. أخرج من جيبه شيئاً ما لم أتبيَّن ما هو: مُفكّرة؟ صورة شمسية؟ أكان يطلب منه أن يوصله إلى عنوان

Twitter: @ketab_n

مُعيّن؟ أم أنه يريه صوراً لنا على أمل أن يكون هذا السائق ذو رأس النمس قد استدلّ علينا.

على أي حال، كان السائق يهزّ رأسه وفيلكور يدسّ في يده بخشيشاً. ثم لمّا أضاءت إشارة التوقّف الحمراء اجتاز الطريق، وراح يبتعد بخطى متكاسلة على جادة البرومناد، من الجانب الأيسر، في اتجاه حديقة ألبير الأول[1].

من غرفة الهاتف في جادة غامبيتا اتّصلتُ بفندق نغرسكو[2].

– هل يمكنني أن أكلّم السيد فيلكور؟

بعد لحظة أجاب البوّاب:

– لا وجود للسيد فيلكور في الفندق.

– بل يوجد... رأيته منذ قليل في البار... يرتدي بذلة رمادية غامقة.

– الجميع يرتدي بذلة رمادية غامقة، يا سيد.

أقفلت الخط.

– غير موجود في النغروسكو، قلت لسيلفيا.

– أكان موجوداً أم غير موجود، لا أهمية للأمر. هل أعطى تعليمات إلى البوّاب؟ أم أعطاه اسماً غير اسمه؟ كان أمراً مرعباً

1 Jardin Albert – 1er

2 Negresco

Twitter: @ketab_n

عدم القدرة على تحديد المكان الذي يوجد فيه، والشعور بأنه موجود في كل رُكن من الشارع.

ذهبنا لتناول طعام العشاء في المقهى المحاذي لسينما الفوريم. قرّرنا أن نتصرّف كما لو أن فيلكور لا يشكّل أي تهديد لنا. نعم، إذا قابلناه مصادفةً وأراد أن يكلّمنا سوف نتظاهر بأننا لا نعرفه. نتظاهر؟ يكفي أن نقنع أنفسنا بأننا لسنا جان ولا سيلفيا اللذين كانا يرتادان قديماً ضفاف المارن. لم يعد بيننا وبين هذين الشخصين أي صلة، ولا يمكن لفيلكور أن يثبت العكس. ثم إن فيلكور لم يكن شيئاً في الأصل.

بعد العشاء بحثنا عن ذريعة لكي لا نعود إلى غرفتنا مباشرة. أخذنا مقعدين في الشرفة الدنيا لسينما الفوريم. قبل أن تُطفَأ أضواء الصالة المفروشة ببُسط قديمة من المخمل الأحمر، وتُخلي اللوحات الإعلانية المحلّية المكان للشاشة، أشرنا إلى المُجْلِسة أن تأتينا بقميصين صوفيّين.

لكن لدى خروجنا من السينما شعرت بوجود فيلكور في كل مكان. كان ذلك أشبه برائحة العفونة في غرفتنا، شيء لن نستطيع التخلّص منه أبداً. شيء يلتصق بجلدنا. ثم إن سيلفيا كانت في بعض الأحيان تُسمّي فيلكور "الروسي المُلصق" لأنه كان يزعم أن والده روسي. كذبة أخرى.

Twitter: @ketab_n

صعدنا بخطوات بطيئة جادة غامبيتا، على الرصيف الأيسر. ولدى مرورنا أمام غرفة الهاتف راودتني الرغبة في الاتّصال بآل نيال. حتى الآن لا أحد عندهما يردّ. ربّما كنا نتّصل بهما في الوقت غير المناسب دائماً أو لعلهما غادرا نيس. وكنت لأدهش لو أنهما ردّا لفرط ما كانا مُلْغزَين وعائمَين في ذاكرتي. هل كانا موجودّين حقاً؟ أم أنهما مجرّد سراب متولّد من حالة الوحدة القصوى التي نمرّ بها؟ مع ذلك كان مما يقوّي عزيمتي أن أسمع صوتَين صديقَين. وكان من شأنهما أن يجعلا حضور فيلكور أخفَّ وطأة.

– فيمَ تفكّر؟ سألتني سيلفيا.

– في "الروسي الملصق".

– لا يُوبَه بالروسي...

بلغنا المنحدر البسيط لشارع كافاريلّي. ما من سيارة. ما من ضجة. ما زال هناك بعض الفيلات بين البنايات، إحداها محاطة بحديقة واسعة. لكن عُلّقت على سياجها المشبّك لوحة باسم شركة عقارية تعلن أنها ستُهدَم قريباً، لتُشيَّد مكانها بناية فخمة يمكن منذ الآن زيارة نموذج شقة منها في أقصى الحديقة. وقرأت على صفيحة من رخام بالية: "فيلا بزوبرازوف"[1]. كان

1 Villa Bezobrazoff

Twitter: @ketab_n

سكانها من الروس. دللت سيلفيا على الصفيحة:

– هل تعتقدين أنهم كانوا من أقارب فيلكور؟

– يجب أن تسأله.

– ربما كان السيد فيلكور الأب يأتي إلى هنا ليحتسي الشاي مع آل بزبرازوف عندما كان شباباً...

نطقتُ هذه الجملة بالنبرة الرسمية لحاجب ملك. وقهقهت سيلفيا.

في الطابق الأرضي من النُزل كان الصالون لا يزال مضيئاً. مشينا بأكثر ما نستطيع من الهدوء لكي لا تصرّ تحت أقدامنا الحصباء. كنت قد تركت نوافذ الغرفة مشرعة وكان أريج أوراق الشجر ونبات زهر العسل المعرّش يختلط برائحة العفونة. غير أن تلك الرائحة أخذت تطغى على الأريج تدريجياً.

كانت الماسة تتلألأ على جلدها تحت ضوء القمر. كم كانت صُلبة وباردة مقارنةً بهذا الجلد الناعم، وكم كان يتعذّر وضعها على هذا الجسد النحيل والمثير... أكثر من رائحة الغرفة، وأكثر من فيلكور الحائم حولنا، بَدَت لي فجأةً هذه الماسة التي تبرق في الظُليل العلاقة الساطعة للمصير المشؤوم الذي يجثم على كاهلينا. أردتُ أن أنزع العِقد عنها، غير أنني لم أعثر على قُفل السلسلة وراء رقبتها.

Twitter: @ketab_n

وقع الحادث بعد يومين، تحت قناطر ساحة ماسّينا[1].

كنا عائدين سيراً على الأقدام من حديقة ألبير الأول عندما صادفنا فيلكور. كان يخرج من دار الصحافة، وكان يرتدي البذلة الرمادية الغامقة التي رأيتها عليه في بار الفندق. أدرت رأسي في الحال وجذبت سيلفيا ضاغطاً ذراعها.

غير أنه لمحنا وسط المارّة الكثر بعد ظهر ذلك السبت. اتّجه نحونا دافعاً بعض الأشخاص الذين كانوا يفصلون بيننا وبينه، جاحظ العينين، ثابت النظر. ولِشدّة اندفاعه أسقط الصحف التي كان يتأبّطها.

أجبرتني سيلفيا على أن أبطئ الخطى. وكانت تبدو هادئة جداً.

– هل أنت خائف من الروسي؟

بذلتُ جُهداً كي تبتسم. مضينا في شارع فرنسا. كان يسير على بعد زهاء عشرة أمتار منا، إذ اعترضته زمرة من السياح الذين كانوا يخرجون من مطعم يقدّم البيتزا فتأخّر عنا. وما لبث أن لحق بنا.

1 Place Masséna

Twitter: @ketab_n

– جان... سيلفيا.

نادانا بلهجة ودّية مُتصنّعة، غير أننا تابعنا السير من دون أن نأبه به. مضى في إثرنا:

– ألا تريدان أن تكلّماني؟ هذه حماقة...

وضع إحدى يديه على كتفي ثم ضغطها ضغطاً شديداً. عندئذٍ استدرت نحوه. وكذلك فعلت سيلفيا. وإذا بنا نقف بلا حراكٍ أمامه. لا بد أنه قرأ شيئاً ما في نظرتي أقلقه لأنه أخذ ينظر إليّ بنوع من الخشية.

كان بودي أن أسحقه كحشرة لو كان ذلك ممكناً. ولتولّد لدي بعدها شعور أشبه بشعور سبّاح يصعد من الماء لتنشّق الهواء الطلق.

– إذاً... لا يقالُ لي حتى صباح الخير؟

بلى؛ لو كنا وحدنا لقتلته حتماً بوسيلة أو بأخرى، لكنْ في هذا الجزء المخصص للمشاة من شارع فرنسا، ذات يوم سبت، عصراً، كان من شأن المارّة الذين يزدادون عدداً أن يتجمهروا حولنا عند أتفه حادث.

– ما عاد الناس يتعرّفون إلى الأصدقاء القدامى؟

سِرنا، أنا وسيلفيا، بخطى أسرع. لكنه ما زال يتبعنا، ويلتصق بنا:

Twitter: @ketab_n

– خمس دقائق فقط لكي نحتسي كأساً... ونتكلّم قليلاً...

حَثَثْنا الخطى. كان يلحق بنا، يسبقنا، يعترض سبيلنا. وكان يتقافز أمامنا كلاعب كرة قدم يحاول أن يعترض كرة. وكانت ابتسامته تغيظني.

أردت أن أبعده بحركة من ذراعي واسعة فصدم مرفقي شفتيه. أخذ ينزف. شعرت بأن شيئاً لا يمكن إصلاحه قد وقع. في هذه الأثناء كان المارة يستديرون نحو فيلكور الذي كان الدم يسيل ببطء على ذقنه. غير أنه كان لا يزال يبتسم.

– لن تتخلّصا منّي على هذا النحو...

كانت نبرته أكثر عدائية. ومضى يتقافز أمامنا.

– لدينا مع ذلك مشاكل ينبغي حلّها، أليس كذلك؟ أم أن الآخرين سيتولّون حلّها من أجلنا...

هذه المرّة كان مستعداً للتضارب بالأيدي، وتخيّلت المارة وقد ضربوا حولنا نطاقاً، لا نستطيع منه انفلاتاً، وقام أحدهم باستدعاء الشرطة، وإذا بعربة السجن تنفذ من شارع فرعي... هذا ما يريد أن يتسبّب به فيلكور.

دفعتُه مجدداً. الآن أخذ يسير إلى جانبنا، بخطى متسارعة كخطانا. وكان الدم يسيل على ذقنه.

يجب أن نتحادث معاً... لديّ أشياء كثيرة مهمّة أقولها

Twitter: @ketab_n

لكما. أخذت سيلفيا بذراعي وانفصلنا عنه، لكن سرعان ما عاد للالتصاق بنا كالأخطبوط.

– لا يمكنكما أن تنفردا معاً... أنا موجود، أنا... يجب أن نسوّي أمورنا في ما بيننا... وإلاّ تدخّل فيها الآخرون.

ضغط قبضتي ضغطاً أراده ودّياً. ولكي أتخلّص منه ضربته بساعدي ضربة عنيفة على أضلاعه، فتأوّه.

– أتريد أن أُثير فضيحة في الشارع؟ أن أصرخ "أمسكوا اللصوص"؟

افترّتْ شفتاه عن تكشيرة غريبة تعبيراً عن استيائه.

– سوف تریاني في طريقكما دائماً... تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع الآخرين من التدخل...

شرعنا نركض، وتمكّنّا بفضل المفاجأة من أن نسبقه مسافةً طويلة. انطلق هو في إثرنا مصطدماً ببعض المارّة ما استدعى تدخّل رجلين أخذا يتشاجران معه. أما نحن فاندسَسْنا تحت بوابة عربة، ونفذنا من زقاق إلى الفناء الداخلي لإحدى البنايات وصولاً إلى لا برومناد ديزنغليه.

في جادة غامبيتا، دخلت غرفة هاتف واتصلت مجدداً بآل نيال. توالت الرنّات من دون أن يردّ أحد. لم نشأ، أنا وسيلفيا، أن نعود إلى النُزل، وكنا نأمل أن يدعونا آل نيال إلى منزلهما.

Twitter: @ketab_n

هنالك نصبح بمنأى عن فيلكور.

لكن بعد هُنَيهة، ونحن على الرصيف المشمس، وسط جماعات المتنزهين الذين كانوا يقصدون البحر، بدا لنا هذا الحادث تافهاً. لم يكن هنالك أي سبب لاتخاذ تدابير احتياطية. بإمكاننا نحن أيضاً أن نستمتع كالآخرين بهذا النهار الشتائي اللطيف، ولن يستطيع فيلكور، على الرغم من كل جهوده، أن يتدخل في حياتنا الجديدة. لقد عفّ عليه الزمن.

– لكن لماذا كان يقفز أمامنا؟ سألتني سيلفيا، لم يكن يبدو عليه أنه في حالته الطبيعية.

– لا، لم يكن في حالته الطبيعية على ما يبدو.

كانت طريقته في ملاحقتنا، والتهديدات التي وجّهها إلينا من دون اقتناع، تدلّ على أنه مُنهك. لم يكن واقعياً إلى حدٍّ بعيد. حتى إن الدم الذي كان يسيل من شفتيه ويغطي ذقنه لم يبدُ دماً حقيقياً بل حيلة سينمائية، ولقد تخلّصنا منه بسهولة مُحيِّرة.

اخترنا مقعداً في حديقة ألزاس – لورين تحت أشعة الشمس. كان ثمة أطفال يتزلّقون على مزلقة خضراء، وآخرون يلعبون في الحوض الرملي، وآخرون يمتطون ألواح الأراجيح، صاعدين، هابطين، صاعدين بحركة منتظمة رتيبة لا تلبث أن تخدّرنا. إن مَرّ فيلكور من هنا فلن يتمكّن من تمييزنا من بين كل هؤلاء الناس

Twitter: @ketab_n

الذين يراقبون أولادهم. حتى لو لاحظنا وسطهم فما أهمية ذلك؟ فنحن لم نعد في المحيط المضطرب لضفاف المارن، حيث يصعد من الماء الراكد عفن الوحل. كانت السماء زرقاء صافية عصر ذلك اليوم، وأشجار النخيل باسقة، وواجهات البنايات ناصعة البياض ووردية جداً، بحيث أن شبحاً مثل فيلكور، لا يقوى على مقاومة هذه الألوان الصيفية، لن يتحمّل ذلك، ولسوف يتلاشى في الهواء حيث يتضوّع عِطر الميموزا.

Twitter: @ketab_n

أمرّ أحياناً أمام الفيلا حيث أقام آل نيال. تقع هذه الفيلا في جادة سيميه إلى اليمين على بعد حوالي خمسين متراً من تقاطع الطرق الذي تشرف عليه واجهة فندق ريجينا القديم. هي واحدة من هذه المساكن الخاصة التي لا تزال قائمة في الحيّ. لكن لا ريب في أن هذه البقايا الأثرية سوف تضمحلّ بدورها، لا شيء يوقف التقدم.

هذا ما كنت أفكّر فيه ذلك الصباح عائداً من نزهة قمت بها في سيميه حتى حديقة الأرين[1]. توقفت أمام الفيلا. منذ بعض الوقت يعمل البناؤون على تشييد بناية في القسم المهمل من الحديقة. وإنني لأتساءل هل سيقدمون على هدم الفيلا نفسها أم يُبقون عليها كملحق للبناية الجديدة؟ ربما كُتِبَ لها البقاء؛ فهي ليست قديمة جداً وتبدو كمقصورة صغيرة في الحديقة، حسب الأسلوب الذي كان سائداً في الثلاثينيات، بأبوابها المنخفضة الأشبه بالنوافذ وقناطرها الصغيرة.

لا تكاد الفيلا تُرى لأنها تشرف على الجادة، ويتعيّن الوقوف

١ Le Jardin des Arènes: الترجمة الحرفية: حديقة الرملة.

Twitter: @ketab_n

على الرصيف المقابل، عند تقاطع جادة إدوار السابع[1]، لرؤيتها جيداً، من فوق السور الكبير المفرّغ. أسفل السور ووسطه يخترقهما حاجز مشبّك من حديد مُطرَّق يقع خلفه سلّم حجري منحدر يفضي إلى درج مدخل الفيلا.

السياج مفتوح على الدوام لكي يسمح بالولوج إلى ورشة البناء. وقد عُلِّقت على الجدار لوحة إعلانية بيضاء حيث يمكن قراءة اسم الشركة العقارية، وأسماء المهندس والمقاولين، وتاريخ الترخيص بالبناء، ولسوف تُسمّى البناية باسم الفيلا: "شاتو دازور"[2] والمالك هو شركة S.E.F.I.C، في نيس، شارع توندیتي – دو – لسكارين[3].

ذات يوم قصدت ذلك العنوان لمعرفة اسم الشخص الذي اشترت منه شركة S.E.F.I.C فيلا لوشاتو أزور، وقد أعطوني معلومات كنت أعرفها من قبل. كانت الفيلا ملك السفارة الأميركية، من بين مالكين سابقين، وقد أجّرتها لبعض الأفراد. وأدركت أن مسعاي هذا بدا غير متحفّظ تماماً – وحتى إنه مثير للريبة – في نظر السمسار العقاري الأشقر والبشوش الذي

1 Avenue Edouard-VII

2 Château Azur

3 Rue Tonduti-de-l'Escarène

Twitter: @ketab_n

استقبلني، فلم أُلِحّ في السؤال.

وما الفائدة؟ قبل وقت طويل من امتلاك شركة S.E.F.I.C لوشاتو أزور والشروع في تنفيذ عمليتها العقارية حاولت أن أعرف المزيد عن هذه الفيلا. لكن، كما حصل في هذا المكتب الكائن في شارع توندیتي - دو - لسكارين، لم تحظَ أسئلتي بإجابات حقيقية.

قبل سبع سنوات تقريباً كانت الفيلا لا تزال محتفظة بمظهرها المألوف، لا ورشة بناء، ولا لوحة إعلانية على الجدار الكبير ذي الدرابزين، وكان سياج المدخل مغلقاً. والسيارة الرمادية مركونة بمحاذاة الرصيف وعلى لوحتها المعدنية حرفا هـ. د (هيئة دبلوماسية). كانت تلك هي السيارة نفسها التي أقلّنا بها، سيلفيا وأنا، آل نيال إلى نُزل سانت - آن، عشيّة تعرّفنا إليهما. قرعت جرس سياج الفيلا. ظهر رجل أسمر اللون، في الأربعينيات من العمر، يرتدي بذلة كحلية:

- ما هذا؟

طرح عليّ هذا السؤال بفظاظة وبلكنة باريسية.

- تعرّفت إلى سيارة أحد أصدقائي، قلت له مشيراً إلى السيارة الرمادية، وأريد أن أطّلع على أخباره.

- مَن؟

Twitter: @ketab_n

– السيد نيال.

– غلطان يا سيد. هذه سيارة السيد كونديه – جونز.

لبث واقفاً خلف السياج وهو ينظر إليّ بأكبر قدر ممكن من الاهتمام لكي يقدّر جيداً مدى الخطر الذي أمثّله.

– هل أنت متأكد، قلت له، أنّ هذه السيارة تعود إلى هذا السيد؟

– حتماً. أنا سائقه.

– غير أن صديقي كان يقيم هنا...

– أنت مخطئ، يا سيد... هذا المنزل يعود إلى السفارة الأميركية...

– لكن صديقي كان أميركياً...

– المنزل يسكنه القنصل الأميركي، السيد كونديه – جونز...

– منذ متى؟

– منذ ستة أشهر، يا سيد.

كان ينظر إليّ من خلف السياج كما لو أنني لا أملك قواي العقلية تماماً.

– هل يمكنني أن أرى هذا السيد؟

– ألديك موعد معه؟

– لا. لكنني مواطن أميركي وأحتاج إلى نصائحه.

Twitter: @ketab_n

فجأة أوحت له المواطنية الأميركية التي ادّعيتها بالثقة بي.

– في هذه الحالة يمكنك أن ترى السيد كونديه – جونز الآن، إذا أردت. فهو في هذا الوقت يستقبل الزوّار.

فتح لي باب السياج وتنحّى عن طريقي مع كل الاحترام الذي تُمليه المواطنية الأميركية، ثم تقدّمني إلى الدرج.

على حافة حوض السباحة الفارغ، أمام المنزل، كان يجلس رجل على كرسيّ بذراعين منّ خشب أبيض، وهو يدخّن، مائلاً بوجهه قليلاً إلى الوراء، كما لو أنه يريد أن يعرّضه لأشعّة الشمس.

لم ينتبه إلى حضورنا...

– سيّد كونديه – جونز...

خفض الرجل نظره علينا وابتسم على سبيل المجاملة.

– سيّد كونديه – جونز، يريد هذا السيد أن يراك... إنه مواطن أميركي.

عندئذٍ نهض. كان رجلاً ضئيل القامة، بديناً، له شعر أسود مردود إلى الوراء، وشاربان، وعينان زرقاوان.

– ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

طرح هذا السؤال بالفرنسية، من دون أي شائبة في النطق، وبصوت عذب. اطمأنّ له قلبي. لم تكن الصيغة التي استعملها من قبيل المجاملة البسيطة وإنما هي تعبير عن اهتمام مرهف

Twitter: @ketab_n

بالغير. هذا على أي حال ما اعتقدت أنني شعرت به من نبرة صوته. ثم إنني لم أقابل منذ مدة طويلة شخصاً يسألني: ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

– أريد أن أستعلم عن أمر ما، غمغمتُ.

كان السائق قد توارى. وراودني إحساس غريب لوجودي على حافة هذا الحوض.

– أي نوع من الاستعلام؟

نظر إليّ مترفّقاً.

– لقد كذبت لكي أراك... قلت إنني مواطن أميركي...

– أميركي أم غير أميركي، يا صديقي العزيز، لا أهمية لذلك.

– أخبرك إذاً، قلت له. كنت أريد الحصول على معلومات عن الناس الذين أقاموا في هذه الفيلا قبلك.

– قبلي؟

استدار، ونادى بصوتٍ جهير:

– بول...

وسرعان ما ظهر السائق كما لو أنه كان مختبئاً بالقرب منا، خلف شجرة أو حائط.

– أيمكنك أن تأتينا بشراب؟

– حالاً، سيدي القنصل.

Twitter: @ketab_n

أشار إليّ كونديه – جونز بالجلوس على أحد الكراسي الخشبية البيضاء، وجلس على مقربة مني، ثم أقبل السائق لبضع أمامنا صينية عليها كأسان مليئان بسائل حليبي. باستيس[1]؟ ابتلع منه كونديه – جونز جرعة كبيرة.

– أنا أصغي إليك... قل لي كل شيء.

بدا مسروراً لوجوده بصحبة شخص ما. لا ريب في أن منصب القنصل هذا في نيس يترك له كثيراً من أوقات الفراغ ويجب ملؤها.

– جئت إلى هنا مراراً منذ بعض الوقت... وكان يستقبلني زوجان يدّعيان أنهما مالكا هذا المنزل...

لم يكن بإمكاني أن أخبره بكل شيء طبعاً. وقرّرت أن أخفي عنه وجود سيلفيا.

– بماذا كان يُدعى هؤلاء الناس؟

– آل نيال... كان هو أميركياً وهي إنكليزية... وكانا يستخدمان سيارتك المركونة في الأسفل.

– هذه ليست سيارتي، قال لي كونديه – جونز بعد أن أفرغ كأس الباستيس، بجرعة واحدة. كانت هذه السيارة موجودة هنا قبل مجيئي...

١ Pastis: مشروب فرنسي معطّر باليانسون.

Twitter: @ketab_n

لكن لم يمضِ وقت طويل حتى اختفت السيارة من أمام الفيلا. وكنت كلما صعدت نحو جادة سيميه آمل أن أجدها هناك، في محاذاة الرصيف. لا، قرعت الجرس عصرَ ذات يوم لكي أدفع الشك باليقين، فلم يردّ أحد. استنتجت من ذلك أن كونديه – جونز كان قد ذهب بتلك السيارة الرمادية ذات اللوحة الدبلوماسية ولم يأتِ أي قنصل آخر ليخلفه في منصبه في شاتو أزور. في ما بعد قرأت على اللوحة الإعلانية للشركة العقارية S.E.F.I.C المعلّقة على السور ذي الدرابزين أن الفيلا لم تعد ملكاً للسفارة الأميركية، ما يعني أن الفيلا نفسها لن تكون موجودة عن قريب.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها كونديه – جونز كانت عصر يوم من أيام نيسان/ أبريل. تركتُ له عنواني وكان من اللطف بحيث أرسل إليّ كلمة يدعوني فيها إلى زيارته ويبلغني أنّ بحوزته كل المعلومات المتعلقة بفيلا شاتو أزور، قائلاً إنها جديرة باهتمامي.

كان جالساً في المكان نفسه الذي وجدته فيه في لقائنا الأول: على حافة ذلك الحوض الفارغ، الذي غطّت أرضه أوراق الشجر الميتة والصنوبر. ولقد خِلْتُ أنه ما زال جالساً هناك، جامداً، منذ أن "تولّى مهامّه" – كما كان يقول هازئاً من نفسه نوعاً ما، ذلك أنه إذا كان بوسعه أن يفخر بصفة "قنصل" فإن "مهامه" في نيس

Twitter: @ketab_n

كانت مبهمة. وكان يعلم أن هذا المركز ما هو إلا محطة أودعوه فيها في انتظار اليوم الذي يُحال فيه على التقاعد نهائياً.

إذاً، ذلك اليوم كان قد حَلّ. وكان عليه أن يعود إلى أميركا بعد أكثر من عشرين سنة من الخدمة المخلصة لدى سفارة الولايات المتحدة في فرنسا. ولقد رغب في أن آتي إليه اليوم لكي يبلغني بالمعلومات التي تعنيني، ولكن أيضاً – كان غالباً ما يستعمل تعابير اصطلاحية يُحرّفها بعض الشيء – لاحتساء "كأس وداع".

– سوف أذهب غداً، قال لي كونديه – جونز. سأعطيك عنواني في فلوريدا وإذا ما أُتيح لك السفر إلى هناك سأكون مسروراً باستقبالك.

كان يبدو ودوداً تجاهي مع أننا لم يسبق لنا أن التقينا سوى ثلاث أو أربع مرّات منذ اليوم الذي قرعت فيه الجرس عند سياج الفيلا. ولكن ربما كنتُ الشخص الوحيد الذي قطع وحدته الدبلوماسية.

– يؤسفني أن أغادر الكوت دازور...

ألقى نظرة متأمّلة على الحوض الفارغ والحديقة المهملة التي تفوح منها رائحة شجر الأوكالبتوس.

قدّم لنا السائق المشروب الفاتح للشهية. وكنا جالسين جنباً إلى جنب.

Twitter: @ketab_n

– لديّ كل المعلومات التي تهمّك...

ناولني مُغلّفاً كبيراً أزرق.

– كان عليَّ أن أتّصل بالسفارة في باريس...

– أشكرك جزيل الشكر على كل هذا العناء.

– لا داعي للشكر... وجدت هذا الأمر مفيداً جداً، سوف تقرأ هذه الوثائق بكثير من الاهتمام... هذا الأمر على جانب من الأهمية.

كنت قد وضعت المغلّف على ركبتي. ابتسم في وجهي ابتسامة ساخرة.

– قلتَ لي إن صديقك يُدعى نيال؟

– نعم.

– كم عمره؟

– حوالي أربعين سنة.

– إذاً هذا ما أفكّر فيه... الأمر يتعلق بقصة...

أخذ يبحث عن الكلمة الملائمة. كان يتكلم الفرنسية بطلاقة، لكن من وقت إلى آخر – لا ريب في أن هذه عادة دبلوماسية – كان يتردّد في استخدام الكلمة الأكثر دقة.

– قصة أشباح...

– أشباح...؟

Twitter: @ketab_n

– نعم، نعم. سوف ترى بأمّ عينيك.

لم أرد، على سبيل التهذيب، أن أفتح المغلَّف في حضوره. كان يحتسي مشروب الباستيس بجرعات صغيرة)، متأملاً الحديقة أمامنا، وقد غمرتها أشعة الشمس الأخيرة.

سوف أضجر في أميركا... لقد تعلّقتُ بهذا البيت... بيت غريب جداً إذا ما صدّقنا هذه الوثيقة... مع ذلك لم أسمع قط أي ضجة مريبة أثناء إقامتي فيه... لم أرَ أشباحاً، في الليل... يجب أن أعترف لك بأنني أنام فيه نوماً عميقاً...

رَبَّت على ساعدي بودّ.

– معك حق، يا صديقي العزيز، في سعيك إلى اكتشاف أسرار هذه البيوت القديمة في الكوت دازور.

وجدت في المغلّف ورقتين باللون الأزرق نفسه الذي كُتب به عنوان السفارة الأميركية في الأعلى.

كانت المعلومات المجمّعة والمطبوعة على الآلة الكاتبة بحروف برتقالية تفيد بالآتي: كانت ملكية شاتو دازور، الكائن في جادة سيميه، تعود في الثلاثينيات إلى المدعو أ. فيرجيل نيال، وهو مواطن أميركي، صاحب منتجات تجميل وعطور توكالون[1]

1 Takalon

Twitter: @ketab_n

التي كانت مكاتبها في باريس، ٧ شارع أوبير[1] و١٨٣ شارع دولا بومب[2]؛ وفي نيويورك ٢٧ غرب الشارع العشرين. في عام ١٩٤٠، عندما بدأ الاحتلال، كان نيال قد عاد إلى أميركا، غير أن زوجته بقيت في فرنسا. "وقد تمكنت السيدة فيرجيل نيال، المولودة في عائلة بودييه[3]، من إثبات جنسيتها الفرنسية لكي تتولّى إدارة أعمال زوجها وتتجنّب قيام السلطات الألمانية بوضع شركة المنتجات التجميلية والعطور توكالون تحت إدارة مؤقتة بعد دخول الولايات المتحدة الحرب".

كان الوضع معقداً في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤ لكون "السيدة فيرجيل نيال قد أقامت إبّان الاحتلال الألماني، في كل من باريس والكوت دازور، علاقات حميمية مع المدعو لاد، أندريه[4]، المولود في حزيران/ يونيو ١٩١٦، عنوان محل إقامته الأخير المعروف ٥٣، جادة جورج الخامس[5]، باريس، الدائرة الثامنة، والذي حُكِمَ عليه غيابياً في ٢١ آذار/ مارس ١٩٤٨ بتهمة التخابر مع العدو بالسجن عشرين سنة، مع الأشغال الشاقة، والمنع من

1 Rue Auber

2 Rue de la Pompe

3 Bodier

4 Ladd, André

5 Avenue George - V

Twitter: @ketab_n

الإقامة في فرنسا لمدة عشرين سنة، والمصادرة الشاملة لجميع ممتلكاته، والحرمان من الحقوق الوطنية".

وأفاد تقرير السفارة أن فيلا شاتو أزور كانت قد وُضعت تحت الحراسة القضائية في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤ "بناءً على التحقيق الذي أجرته السلطات القضائية الفرنسية بشأن المدعو لاد، أندريه، الصديق الحميم للسيدة نيال...".

وقد عمد الجيش الأميركي إلى مصادرة الفيلا. ثم حصل اتفاق ينصّ على أن "السيدة فيرجيل نيال، مديرة توكالون، تتنازل عن ملكية فيلا أزور لصالح سفارة الولايات المتحدة في فرنسا".

وتمّ التأكيد على أن "السيد والسيدة فيرجيل نيال ليس لديهما أبناء". وكان كونديه - جونز قد علّم على هذه الجملة بالحبر الأخضر وكتب على الهامش: "واحدٌ من أمرين. إمّا أن يكون صديقاك شبحين، وإما أن السيد والسيدة فيرجيل نيال يمتلكان إكسير الشباب الأبدي المصنوع في مختبراتهما في توكالون. أعتمد عليك لكي تكشف لي عن مفتاح هذا اللغز. بكل مُودّة".

Twitter: @ketab_n

غير أنني ما كنت أحلم. كان يدعى فيرجيل نيال حقاً. كنت قد احتفظت ببطاقة الزيارة التي أعطاني إياها أثناء لقائنا الأول وكتب عليها رقم هاتف الفيلاّ. في غرفة الهاتف في جادة غامبيتا أخرجت تلك البطاقة من جيبي قبل أن أطلب الرقم. وكان مطبوعاً عليها – كنت قد تفحّصتها ذلك المساء – من دون ذكر لأي عنوان: السيد والسيدة فيرجيل نيال.

كانت الإثباتات الوحيدة للقائنا مع آل نيال – لكن هل يدعيان نيال وهل يمكن الاعتقاد، كما يقترح كونديه – جونز، بالأشباح، أو بإكسير الشباب الأبدي؟ – الآثار الوحيدة التي تقنعني بأنني لا أحلم، هي بطاقة الزيارة وصورة شمسية لنا نحن الأربعة – سيلفيا وأنا وآل نيال – التقطها أحد هؤلاء المصوّرين الجوّالين الذين يترصّدون السيّاح.

ما زلت ألتقي هذا المصوّر كلما مررت أمام فندق البحر الأبيض المتوسط القديم، حيث يقف بالمرصاد. ومن عادته أن يحييني لكنه لا يرفع كاميرته نحوي. لا بد أنه شعر بأنني ما عدت سائحاً بل أصبحت جزءاً من المشهد الطبيعي حدّ إدماجي بهذه المدينة.

Twitter: @ketab_n

يوم التقاطه لنا هذه الصورة لم تلحظ ذلك سيلفيا ولا آل نيال وقد دَسّ هو كرّاسه الإعلاني في يدي. وبعد ثلاثة أيام ذهبت لجلب الصورة من محل صغير في شارع فرنسا من دون أن أخبر سيلفيا بذلك. سأبحث دائماً عن هذا النوع من الصور، هذه الآثار التي تبقى في ما بعد للحظة عابرة كنا سعداء فيها من نزهة قمنا بها عصر ذات يوم مشمس... لا، لا ينبغي أبداً إهمال هؤلاء الحُرّاس، المتقلّدين كاميراتهم، والمستعدين لتثبيتك في لقطة خاطفة، حرّاس الذاكرة هؤلاء الذين يقومون بدوريات في الشوارع. أعلم عن أي شيء أتكلم. فقد كنت مصوّراً أنا أيضاً.

أردتُ أن أسجّل تفاصيل علاقاتنا بآل نيال، كما لو كنت أحرّر تقريراً للشرطة أو أردّ على استجواب مفتش سليم النيّة تجاهي وأشعر لديه باهتمام أبوي لكي يساعدني على رؤية الأمور بشكل أوضح.

Twitter: @ketab_n

تمكّنت من الاتصال هاتفياً بفيرجيل نيال هذا في الأسبوع الذي تلا ظهور فيلكور. كان "مفتوناً" – قال لي – بالاطّلاع على أحوالنا. كان قد تغيّب هو وزوجته حوالي عشرة أيام "في رحلة عمل غير متوقعة". لكنه سيكون "مبتهجاً" بتناول طعام الغداء معنا، اعتباراً من الغد، إن أمكن ذلك. أعطاني عنوان المطعم حيث سنلتقي في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

مطعم إيطالي، بواجهة مطلية بملاط أحمر رمّاني، في شارع بونشيت[1]، أمام تل الشاتو[2]. وصلنا أولاً، سيلفيا وأنا. أجلسونا إلى طاولة لأربعة أشخاص كان قد حجزها السيد نيال. ما من زبائن غيرنا. ثمة أوانٍ بلّورية، وشراشف بيضاء صقيلة، ولوحات حسب أسلوب غاردي عن البحار، وشبابيك بقضبان من حديد مطرّق، ومدفأة ضخمة نُقِش في عمقها شعار من زهور الزنبق، ومكبرات صوت غير مرئية تبثّ أغنيات رتيبة مشهورة، تعزفها أوركسترا سمفونية.

1 Rue des Ponchettes

2 Colline de Château

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن سيلفيا كانت متخوّفة مثلي. إذ لم نكن نعلم شيئاً عن هذين الشخصين اللذين دعوانا إلى الغداء. لماذا أبدى نيال هذه العُجالة لرؤيتنا؟ هل يجب أن نحمل ذلك على محمل التلقائية الودّية التي تجعل بعض الأميركيين ينادونك منذ اللقاء الأول باسمك الشخصي (دون اسم العائلة) ويُرونك صور أبنائهم؟

وصلا واعتذرا عن تأخّرهما. كان نيال مختلفاً عن الرجل الذي قابلناه في ذلك المساء، فقد زال ذلك الانطباع بالتردد، وكان حليق الذقن حديثاً ويرتدي سترة فضفاضة من نسيج التويد الصوفي الخشن، ويتكلم من دون أدنى تردّد وبلا أثر للكنة الأنغلو – سكسونية، وكانت ذلاقة لسانه – إذا كانت ذاكرتي جيدة – أول ما أثار ريبتي. بدت لي غريبة، تلك الذلاقة، بالنسبة إلى رجل أميركي. وقد ميّزت في بعض الكلمات العامية، وفي طريقة صياغة بعض الجمل، مزيجاً من النبرات الباريسية واللهجة الجنوبية – لكنها لهجة مكبوتة، مُلجَمة، كما لو أن نيال يحاول إخفاءها منذ زمن بعيد. أما زوجته فلم تتكلم إلا قليلاً بهيئتها الحالمة والغائبة نوعاً ما التي فوجئت بها في المرّة الأخيرة. ولم تكن نبراتها هي أيضاً نبرات سيدة إنكليزية. لم أتمالك أن قلت لهما:

– أنتما تتكلمان الفرنسية بطلاقة، حتى ليُظنّ أنكما فرنسيان...

Twitter: @ketab_n

– نشأتُ في مدارس تعتمد اللغة الفرنسية، قال لي، وأمضيت طفولتي كلها في موناكو... وزوجتي أيضاً... هنالك تعارفنا...

هزّت رأسها موافقة.

– وأنت؟ سألني بغتة. أي مهنة مارستَ في باريس؟

– كنت مصوّراً فنياً.

– فنياً؟

– نعم. وأنوي الاستقرار في نيس لاستئناف مهنتي.

بدا متفكراً في ما تعنيه مهنة مصوّر فني. وانتهى بأن سألني:

– هل أنتما متزوجان؟

– نعم... نحن متزوجان، قلتُ مثبتاً نظري على سيلفيا، غير أن هذه الكذبة لم تُثر اعتراضها.

لا أحب كثيراً أن تُطرح عليّ أسئلة. ثم إنني أريد أن أعرف المزيد عنهما، ولكي أبدّد ريبة نيال استدرت نحو زوجته.

– إذاً، قمتما برحلة جميلة؟

كانت مرتبكة وتردّدت في إجابتي. غير أن نيال، الذي بدا مرتاحاً جداً، قال:

– نعم... رحلة أعمال...

– وأي أعمال؟

لم يتوقع الطريقة الفظة التي صغت بها هذا السؤال.

Twitter: @ketab_n

– أوه... صفقة عطورات أحاول أن أنجزها بين فرنسا والولايات المتحدة... لقد اتّفقت مع صناعي صغير في غراس[1]...

– هل تهتمّ بها منذ وقت طويل؟

– لا، لا... في أوقات الفراغ فقط.

نطق هذه الجملة بنبرة متعالية نوعاً ما، كما لو كان يريد إفهامي أنه ليس بحاجة إلى العمل كي يعيش.

– حتى إننا سوف نصنع بعض المنتجات التجميلية... هذا يسلي باربرا كثيراً...

استعادت زوجة نيال ابتسامتها.

– نعم... أهتم بكل ما يتعلّق بالمنتجات التجميلية، قالت بهيئتها الحالمة. سأترك فيرجيل يهتمّ بالعطور... أما أنا فأريد إنشاء مؤسسة تجميل، هنا، في الكوت دازور...

– نحن نتردّد في اختيار المكان، قال نيال. أنا أفضّل موناكو... لا أظن أن هذا النوع من المؤسسات ينجح في نيس...

عندما أتذكر هذه العبارات يتكدّر مزاجي وآسف لأن المعلومات التي زوّدني بها كونديه – جونز لم تكن في حوزتي آنذاك. كيف كانت لتبدو هيئة نيال لو أنني قلت له بصوتٍ عذب جداً:

١ Grasse: مدينة فرنسية مشهورة بصناعة العطور.

Twitter: @ketab_n

– إجمالاً، تريدان أن تطلقا مجدداً شركة توكالون.

وأضفت مقرّباً وجهي من وجهه:

– هل أنت السيد فيرجيل نيال نفسه الذي كان قبل الحرب؟

كانت سيلفيا مهووسة بوضع الماسة في فمها والاحتفاظ بها بين شفتيها كما لو أنها تمصّ معلّلاً. وكان نيال جالساً مقابلها ولم تفته ملاحظة هذه الحركة.

– انتبهي... سوف تذوب...

غير أنه لم يكن مازحاً فحسب. فحالما فرّجت سيلفيا شفتيها وسقطت الماسة على قميصها الأسود المحبوك لمحت العين اليقظة التي سلّطها نيال على الحجر الكريم.

– لديك جوهرة بديعة، قال مبتسماً. أليس كذلك يا باربرا؟

– أهي حقيقية؟ سألتْ بصوت طفولي.

تلاقت نظرتانا، أنا وسيلفيا.

– نعم، إنها حقيقية ويا للأسف، قلتُ.

بدا نيال متفاجئاً بهذا الجواب.

– أنت متأكّد؟ حجمها مدهش.

– هذه جوهرة عائلية كانت جدتي لأمي قد أعطتها لزوجتي، قلتُ. وهذا الأمر يربكنا أكثر مما يريحنا.

– هل عرضتها على خبير؟ سأل نيال بلهجة فضولية مهذّبة.

Twitter: @ketab_n

– أوه نعم... لديها ملفّ كامل خاص بهذه الماسة. إنها تُدعى صليب الجنوب...

– يجب ألاّ تضعيها في عنقك، قال نيال. إذا كانت حقيقية...

في الظاهر، بدا أنه لا يصدّقني، ومَن كان ليصدقني؟ لا تُحمَل ماسة بهذا الحجم وهذا الصفاء على هذا النحو الوقح. لا توضع بين الشفتين ثمّ تترك لتسقط على الصدرية السوداء، ولا تُمصّ.

– زوجتي تحمل هذه الماسة في عنقها لأنه لا يوجد حلّ آخر.

عبسَ نيال.

– ما الذي ينبغي عمله؟ استئجار خزنة في أحد البنوك؟ قلت.

– عندما يرى الناس هذه الماسة في عنقي يظن الجميع أنها من بورما...

– من بورما؟

لم يفهم نيال هذا التعبير الاصطلاحي.

– كان بودّنا أن نبيعها، قلتُ. لكن من الصعب جداً أن نجد مشترياً لحجر كريم كهذا...

كان بادي التأمّل ولا يحيد نظره عن الماسة.

– يمكنني أن أجد لكما مشترياً. لكن ينبغي أولاً عرضها على خبير.

هززت كتفيّ.

Twitter: @ketab_n

– يسرّني أن تجد لي مشترياً، لكن أخشى أن يكون ذلك صعباً عليك...

– يمكنني أن أجد لكما مشترياً... لكن يجب أن تطلعاني على الملفّ، قال نيال.

– لديّ انطباع بأنك ما زلت تعتقد أنها من بورما، قالت سيلفيا.

خرجنا من المطعم. كانت السيارة مركونة عند رصيف الولايات المتحدة حيث انتشر على امتداده مُسنّون مقرورون جالسون على المقاعد ويأخذون حمّاماً شمسياً. تحققت من اللوحة الدبلوماسية. فتح نيال باب السيارة.

– تعاليا لاحتساء القهوة عندنا، قال.

كنت أرغب في أن نتركهما حالاً، غير أنني تساءَلت فجأةً عن المساعدة التي يمكنهما أن يقدّماها لنا. لكن علينا أن نكون مُنصفين وألاّ نقطع العلاقة معهما بحركة مزاجية. كانا الشخصين الوحيدين اللذين تعرّفنا إليهما في نيس.

جلسنا، كما في المرة السابقة، سيلفيا وأنا، في المقعد الخلفي. سرنا في جادة سيميه وكان نيال يقود السيارة ببطء فيما كان السائقون الآخرون يزمّرون له لكي يفسح لهم الطريق.

– مجانين، قال نيال. يريدون أن يسرعوا دائماً.

Twitter: @ketab_n

تجاوزه أحد السائقين وأمطره بوابل من الشتائم.

– لوحتي الدبلوماسية هي التي تثير أعصابهم. ثم إنني أظنّ أن عليهم الإسراع لكي يصلوا إلى مكاتبهم في الوقت المحدّد...

التفت نحوي:

– وأنت؟ هل سبق لك أن عملت في مكتب؟

توقفت السيارة في محاذاة السور ذي الدرابزين. رفع نيال ذراعه.

– المنزل هنا في الأعلى. هكذا نسيطر على الوضع... سوف تريان... إنه منزل جميل جداً.

لمحت فوق السياج المشبّك اللوحة الرخامية التي كُتب عليها: "شاتو دازور".

– والدي هو الذي وجد هذا الاسم، قال نيال. لقد بنى المنزل قبل الحرب.

والده؟ هذا الأمر طمأنني.

بعد أن أقفل نيال السياج المشبّك بالمفتاح ارتقينا الدرج وأفضينا إلى الحديقة التي تشرف على جادة سيميه. بدت لي هذه الفيلا بمظهرها الشبيه بقصر تريانون في منتهى الفخامة.

– باربرا، إذا شئت، قليلاً من القهوة...

كنت مندهشاً لعدم وجود مدير للخدم في هذا المبنى الفخم.

Twitter: @ketab_n

لكن هذا قد لا يتناسب مع بساطة العادات الأميركية. ولا ريب في أن آل نيال، على ثرائهما، كانا بوهيميين إلى حد ما، كما أن السيدة نيال تُعدّ القهوة بنفسها. نعم، بوهيميان. لكنهما ثريّان. هذا على أي حال ما أردت أن أقنع نفسي به.

جلسنا على الكراسي الخشبية البيضاء التي وجدتها في المكان نفسه، بعد مرور سنة، عندما استقبلني كونديه – جونز. لكنّ حوض السباحة أمامنا لم يكن فارغاً.

على سطح الماء الأخضر المزرقّ تطفو أغصان وأوراق شجر ميتة. التقط نيال حجراً وقذفه بحيث يقفز مراراً بعد أن يمسّ الماء.

– يجب أن أُفرغ الحوض وأرتّب الحديقة، قال.

كانت الحديقة مهملة. يسدّ ممراتها العلّيق، وتجتاحها الأعشاب الضارّة. وعلى حافة المرجة التي لم تعد سوى سَهْب مُعشب ينتصب حوض رخامي مصدّع في وسطه نافورة.

– لو رأى والدي هذا المشهد لما فهمه. لكن لا وقت لديّ لكي أعتني بالحديقة...

كانت في صوته نبرة صدق وحزن.

– كان كل شيء مختلفاً في عهد والدي. نيس أيضاً كانت مدينة مختلفة... أتعلم أن أفراد الشرطة في الشوارع كانوا

Twitter: @ketab_n

يعتمرون خوذات استعمارية؟

وضعت زوجته الصينية على الأرض المبلّطة. كانت قد استبدلت بثوبها بنطلوناً من الجينز الأزرق. وصبّت القهوة في الفناجين وناولتها لنا، لكل واحد منا، بحركة رشيقة من ذراعها.

– أما زال والدك مقيماً هنا؟ سألتُ نيال.

– والدي مات.

– أنا آسف...

ولكي يبدّد انزعاجي، ابتسم في وجهي.

– كان عليَّ أن أبيع هذا المنزل... لكني لم أحسم الأمر بعد... إنه عامر بذكريات الطفولة... خصوصاً الحديقة...

كانت سيلفيا قد مضت بخطى متكاسلة نحو المنزل وأسندت جبهتها إلى أحد الأبواب – النوافذ. وكان نيال يراقبها، وقد تغضّنت قامته نوعاً ما، كما لو أنه يخشى أن تكتشف شيئاً ما مريباً.

– سوف أُزيرك المنزل عندما يتمّ تنظيفه...

كان يتكلم بصوت قوي وآمر. ربما أراد أن يمنعها من دفع الباب – النافذة المنفرج والدخول.

مشى نحوها، قادها ضاغطاً بذراعه كتفها، وانضمّا إلينا على حافة الحوض. حتى ليُقال إنه يُعيد ولداً كان قد ابتعد كثيراً عن

Twitter: @ketab_n

كومة الرمل منتهزاً غفلة ذويه.

– يجب ترميم هذا المنزل كلياً... لا أجرؤ على دعوتكم لزيارته على الفور...

بدا مرتاحاً لرؤية سيلفيا بعيدة عن الأبواب – النوافذ.

– قلّما نقيم هنا، زوجتي وأنا... شهراً أو اثنين في السنة، على الأكثر...

شعرت أنا أيضاً برغبة في الذهاب نحو المنزل لأرى ما سيكون عليه موقف نيال. هل يعترض سبيلي؟ عندئذٍ كنت لأميل نحوه هامساً في أذنه:

– يبدو عليك أنك تخفي شيئاً ما في هذا المنزل... جثة؟

– والدي مات منذ عشرين سنة، قال نيال. طوال وجوده هنا كان كل شيء على ما يُرام... المنزل والحديقة كانا يحظيان بعناية فائقة... كان البستاني رجلاً لا مثيل له...

هزّ كتفيه وهو يدلّني على الأشواك والممرّات التي اجتاحتها الأعشاب الضارّة.

– اعتباراً من الآن سنقيم، باربرا وأنا، في نيس وقتاً أطول... خصوصاً إذا ما أنشأنا مؤسسة التجميل هذه... وسوف أعيد كل شيء إلى حالته الطبيعية...

– لكن أين تقيمان، معظم الوقت؟ سألتْ سيلفيا.

Twitter: @ketab_n

– في لندن ونيويورك، أجاب نيال. تملك زوجتي منزلاً صغيراً جميلاً في لندن في حيّ كنزنغتون.

كانت تدخن، ويبدو أنها لم تنتبه إلى ما قاله زوجها.

كنا جالسين، نحن الأربعة، على الكراسي المصنوعة من خشب أبيض والتي تشكّل نصف دائرة على حافة الحوض، وكانت فناجين القهوة موضوعة لكل واحد منا على ذراع كرسيه اليسرى. هذا التناظر أشعرني بضيق غامض عندما لاحظت أنه لا يعود إلى فناجين القهوة فقط. كان جينز باربرا نيال مماثلاً في الشكل واللون لجينز سيلفيا. ولمّا كانت كل منهما جالسة في وضعية الاسترخاء ذاتها، لاحظت أن لديهما القامة الرشيقة نفسها التي تُبرز تقوّس الوركين، حدّ أنني كنت عاجزاً، لدى رؤية أوراكهما وقامتيهما، عن تمييز إحداهما عن الأخرى. ابتلعت جرعة من القهوة. كان نيال قد حمل الفنجان إلى شفتيه في الوقت نفسه، وقمنا بحركة متزامنة ونحن نضع الفنجانين على ذراعي كرسيّينا.

بعد ظهر ذلك اليوم دار الحديث مرّة أخرى على صليب الجنوب. سأل نيال سيلفيا:

– إذاً، أنتما ترغبان حقاً في بيع ماستكما؟

مال نحوها وأمسك الحجر الكريم بين الإبهام والسبّابة

Twitter: @ketab_n

ليتفحّصه، ثم وضعه برويّة على صدار سيلفيا الأسود. اعتبرتُ ذلك من قبيل السلوك المرح لبعض الأميركيين. لم تقم سيلفيا بأدنى حركة وأشاحت بوجهها إلى جهة أخرى، كما لو أنها تريد أن تتجاهل بادرة نيال.

– نعم، نودّ أن نبيعها، قلت.

– إذا كانت حجراً كريماً أصلياً، فلا مشكلة.

بدا أنه يأخذ الأمر جدياً.

– لا يساورك أدنى قلق إن فعلت، قلت بلهجة متعالية. هذه ماسة أصلية. وهذا ما يشغل بالنا حقاً... لا نريد الاحتفاظ بجوهرة على هذا القدر من الأهمية...

– أمي أعطتني إياها بمناسبة زواجي ونصحتني بأن أبيعها، قالت سيلفيا. كانت تعتقد أن الماس يجلب النحس... لقد حاولت هي أن تبيعها لكنها لم تجد الزبائن المناسبين...

– كم تريدان ثمناً لها؟ سأل نيال.

بدا نادماً على هذا السؤال الفظ. وبذل جهداً كي يتبسم:

– اعذراني... أنا غير متحفّظ... بسبب والدي... في مطلع شبابه كان شريكاً لبائع ماس أميركي كبير، وقد أورثني حبه للأحجار الكريمة...

– نريد أن نبيعه بحوالي مليون وخمس مئة ألف فرنك. قلت

Twitter: @ketab_n

بصوت جافٍ. هذا سعر معقول تماماً لهذه الماسة. إنها تساوي الضعف.

– كنا ننوي وضعه وديعة لدى فان كليف[1] في مونتِ كارلو لكي يعثر لنا على زبون، قالت سيلفيا.

– لدى فان كليف؟ كرّر نيال.

هذا الاسم المتألق والحاسم جعله يحلم.

– لا أستطيع أن أعلّقه دائماً في عنقي كالرَّسن، قالت سيلفيا.

أطلقت باربرا ضحكة لاذعة.

– أي نعم... الحق معك، قالت. يُخشى أن يُنتَزع منك في الشارع.

وتساءلتُ ما إذا كانت جدّية أم أنها تهزأ بنا.

– لعلّ بإمكاني أن أجد لكما زبائن، قال نيال. باربرا وأنا نعرف أميركيين من المحتمل أن يشتروا هذه الماسة. أليس كذلك يا عزيزتي؟

ذكر عدة أسماء. وصادقتْ بهزّ الرأس.

– وأنت تعتقد أنهم سيدفعون الثمن الذي أبلغتك إياه؟ قلتُ بصوت عذب.

– بالتأكيد.

---

1 Van Cleef

Twitter: @ketab_n

– هل تريدان أن تشربا شيئاً؟ سألت باربرا نيال.

ألقيتُ نظرة على سيلفيا. كنت أرغب في الذهاب. غير أنها بدت مرتاحة في هذه الحديقة المشمسة، وقد أسندت رقبتها إلى الكرسي، وأغمضت عينيها.

مضت باربرا نيال نحو المنزل. أشار نيال إلى سيلفيا وقال لي بصوت خفيض:

– أتظن أنها نائمة؟

– نعم.

مال نحوي، وقال بصوت أخفض من الأول:

– بخصوص الماسة... أعتقد أنني سأشتريها أنا منك إن أثبتّ لي أنها أصلية حقاً...

– إنها كذلك.

– أريد أن أقدّمها إلى باربرا بمناسبة مرور عشر سنوات على زواجنا.

لاحظ بعض الريبة في نظرتي.

– اطمئن... أنا قادر على الدفع تماماً...

ضغط ذراعي ضغطاً شديداً لكي يُفهمني أنّ عليّ أن أصغي إليه بكل ما أُوتيتُ من سمع:

– لا فضل لي في ذلك البتّة: لم أفعل شيئاً سوى أنني ولدتُ

Twitter: @ketab_n

وورثت الكثير من المال من والدي... هذا من قبيل الظلم، لكن هذا هو الواقع... أوثقت بي الآن؟ هل تعتبرني زبوناً جدّياً؟

انفجر ضاحكاً. لعله أراد أن أنسى اللهجة العدوانية التي خاطبني بها.

– لا ينبغي أن يكون بيننا أي قدر من الانزعاج... يمكنني أن أعطيك دفعة على الحساب.

اقترح نيال أن يوصلنا بالسيارة لكنني قلت له إننا نفضّل أن نعود سيراً على الأقدام. ومن على رصيف جادة سيميبه رفعت رأسي: هناك في الأعلى كانا متّكئين كلاهما على درابزين الحديقة وينظران إلينا.

لوّح لي نيال بذراعه. كنا قد اتفقنا على أن نتهاتف في الغد ونحدّد موعداً للّقاء. بعد عدّة خطوات استدرت نحوهما مرّة أخرى. ما زالا متكئين على الدرابزين دون حراك.

– يريد أن يشتري الماسة ليقدّمها هدية إلى زوجته، قلت.

– بأي ثمن؟

– الثمن الذي ذكرته له. أتظنين أنهما يملكان المال حقاً؟

نزلنا ببطء جادة سيميبه تحت شمس ساطعة. خلعت معطفي. كنت أعلم أننا كنا في فصل الشتاء وأن الليل سيهبط عن قريب، لكنني ظننت نفسي في شهر تموز/ يوليو. وسط هذا الخلط بين

Twitter: @ketab_n

الفصول، والسيارات القليلة التي تمرّ، وهذه الشمس، والظلال الواضحة على الرصيف والجدران...

ضغطتُ قبضة سيلفيا:

– ألا تشعرين بأننا في حُلم؟

ابتسمت لي لكن نظرتها كانت قلقة.

– وهل تعتقد أننا سوف نستيقظ في النهاية؟ سألتني.

سرنا صامتين حتى المنعطف الذي يُشرف على الواجهة المنحنية لفندق ماجستيك القديم، ونفذنا من جادة دوبوشاج[1] إلى وسط المدينة. شعرت بالارتياح لوجودي تحت قناطر ساحة ماسّينا، وسط ضوضاء المرور وجمهور المتسكّعين وأولئك العائدين من مراكز عملهم وينتظرون الحافلات. كل هذا الاضطراب ولّد لديّ الإحساس الخادع بالخروج من الحُلم الذي كنّا مسجونين فيه.

حُلم؟ الأحرى أن يقال هو الإحساس بأن النهارات تمرّ في غفلة منا، من دون أي جهد كان من شأنه أن يُمكّننا من التأثير عليها. مضينا قدماً، محمولين على بساط نقّال والشوارع تتتالى وما عدنا ندري ما إذا كان البساط النقّال يقودنا أم أننا كنا ثابتين في مكاننا فيما المشهد المحيط بنا ينزلق بالحيلة

1 Boulevard Dubouchage

Twitter: @ketab_n

السينمائية المسمّاة: شفافية.

في بعض الأحيان يتمزّق الستار، ليس في النهار مطلقاً ولكن في الليل، بسبب الهواء الذي يغدو أكثر برودةً والأضواء المتلألئة. سرنا بمحاذاة لا برومناد ديزنغليه، واتّصلنا مجدداً بالأرض الصلبة. تبدّدت البلادة التي استولت علينا منذ وصولنا إلى هذه المدينة. وما زلنا نشعر بأننا نتحكّم في مصيرنا. بوسعنا أن نقوم بمشاريع، وسوف نحاول عبور الحدود الإيطالية. قد يساعدنا آل نيال. وعلى متن سيارتهما ذات اللوحة الدبلوماسية سوف نعبر من فرنسا إلى إيطاليا، من دون أن نتعرّض للتفتيش أو نلفت الانتباه، وسوف ننحدر في اتجاه الجنوب حتى روما، هدفنا، والمدينة الوحيدة التي يُخيّل إليّ أن بإمكاننا أن نستقرّ فيها بقية حياتنا، روما الملائمة جداً لطبائع متكاسلة كطبيعتين.

في النهار يتوارى كل شيء. نيس، وسماؤها الزرقاء، وبناياتها المضيئة على هيئة محلات ضخمة للحلويات أو بواخر، وشوارعها المقفرة والمشمسة أيام الأحد، وظلالنا على الرصيف، وأشجار النخيل ولا برومناد ديزنغليه، كل هذا المشهد ينسلّ، بشفافية. في أوقات العصر، عندما يطرطق المطر على سطح التوتياء، كنا نمكث في رائحة الرطوبة والعفن التي تملأ الغرفة مع الانطباع بأننا متروكَيْن. في ما بعد اعتدت على هذه

Twitter: @ketab_n

الفكرة واليوم أشعر بأنني مرتاح في مدينة الأشباح هذه حيث توقف الزمن. أُقِرّ، على غرار أولئك الذين يتتالون في موكب بطيء على امتداد لا برومناد، بأنّ نابضاً قد انكسر فيّ. نعم، أنا أطفو مع سكان نيس الآخرين. لكن في حقبة نُزُل سانت – آن كانت هذه الحالة جديدة علينا، وما زلنا ننتفض في هبّات مفاجئة ضد الخدر الذي كان يستولي علينا. كان الشيء الوحيد، الصلب والثابت، في حياتنا، ونقطة الاستدلال التي لا تتغير، هو تلك الماسة. هل كانت شؤماً علينا؟

Twitter: @ketab_n

رأينا آل نيال مجدداً. أتذكّر موعداً معهما في بار فندق نغرسكو قرابة الساعة الثالثة من بعد الظهر. انتظرناهما جالسين قبالة الكوّة المزجّجة. وكانت تقتطع بقعةً من السماء زرقتها لا تزال واضحة وأبعد منالاً في هذا الظُليل الذي يغمرنا.

– وإن جاء فيلكور؟

طالما دعوته باسم العائلة.

– نتظاهر بأننا لا نعرفه، قالت سيلفيا، أو نتركه عندئذٍ مع آل نيال ونتوارى نهائياً.

هذه الكلمة: نتوارى، في فم سيلفيا، لا تزال تجمّد قلبي حتى اليوم. غير أنني ضحكت عصر ذلك اليوم، لفكرة جلوس آل نيال وفيلكور إلى نفس الطاولة، من دون أن يجدوا ما يقولونه وينتابهم القلق تدريجياً من غيابنا المطوّل.

وإذاً لا، لم يأتِ فيلكور.

ومشينا خطوات مع آل نيال على طول لا برومناد ديزنغليه. وفي ذلك اليوم رفع المصوّر، المرابط أمام فندق البحر المتوسط، كاميرته نحونا ودسّ في يدي بطاقة المحل الذي يمكنني أن

Twitter: @ketab_n

أقصده لأخذ الصور خلال ثلاثة أيام.

كانت السيارة ذات اللوحة الدبلوماسية متوقفة أمام لعبة الخيل الخشبية في حديقة ألبير الأول. قال لنا نيال إنه "سيقفز" مع زوجته إلى موناكو "لتسوية بعض الأعمال". كان يرتدي صدرية صوفية عالية القبّة وبذلته القديمة المصنوعة من جلد الغزال التي كان يرتديها أول مساء قابلناهما فيه، أما باربرا نيال فكانت تلبس بنطلون الجينز وسترة من فرو السمّور السيبيري.

أخذني نيال جانباً. كنا أمام الخيل الخشبية التي كانت تدور ببطء، ولم يكن هنالك سوى ولد واحد يجلس على إحدى مركباتها التي تجرّها خيول خشبية بيضاء من دون توقف.

– يذكّرني هذا المشهد بذكرى من أيام الطفولة، قال لي نيال. كان عمري عشر سنوات... نعم... في عام ١٩٥٠... ١٩٥١... وكنت أتنزّه بصحبة والدي وأحد أصدقائه... وأردت أن أركب حصاناً خشبياً. ركب صديق والدي معي... أتدري مَن كان ذلك الصديق؟ إيرول فلين... هل يعني لك اسم فلين شيئاً؟

أحاط كتفي بيده في حركة متعطّفة.

– كنت أريد أن أحدّثك عن الماسة... عن قريب يحلّ عيد ميلاد باربرا... سوف أعطيك دفعة على الحساب في أسرع وقت

Twitter: @ketab_n

ممكن... شيك على بنكي في موناكو... بنك إنكليزي... هل يناسبك ذلك؟

– كما تريد.

– سأطلب تحويل هذه الماسة إلى خاتم... سوف تُفتَتن به باربرا.

عدنا إلى سيلفيا وباربرا. عانقنا آل نيال قبل أن يصعدا إلى السيارة. كانا زوجين رائعين، كما بدا لي ذلك اليوم. ثم إن النسيم يغدو عليلاً بعض الأحيان على الكوت دازور في الشتاء، والسماء والبحر شديدي الزرقة، والحياة خفيفة ذات عصر مشمس على طول الطريق الساحلي لفيل – فرانش[1]، بحيث يبدو كلُّ شيء ممكناً: شيكات البنوك الإنكليزية في موناكو التي تُدَسّ في الجيوب، وإيرول فلين الذي يدور على الخيل الخشبية في حديقة ألبير الأول.

1 Ville – franche

Twitter: @ketab_n

– هذا المساء سوف نصطحبكما لتناول طعام العشاء في كوكو – بيتش[1].

كان صوت نيال في الهاتف جهورياً لا أثر فيه للُكنة أميركية، حتى عندما نطق بكلمتي كوكو – بيتش.

– سنأتي لنأخذكما من فندقكما اعتباراً من الساعة الثامنة.

– وإذا ما اتفقنا على موعد في مكان ما في الخارج؟ اقترحتُ.

– لا، لا... أسهل كثيراً أن نمرّ بفندقكما... نخشى أن نتأخّر قليلاً... اعتباراً من الساعة الثامنة في فندقكما... سنزمّر لكما...

كان من العبث معارضته. ليكن. أجبتُه بأنني موافق. ثم أنهيت المكالمة وخرجت من غرفة الهاتف في جادة غامبيتا.

تركنا نافذة غرفتنا مفتوحة لكي نسمع صوت الزمّور. كنا مستلقييْن كلانا لأن الأثاث الوحيد الذي يمكننا الجلوس عليه في هذه الغرفة هو السرير.

بدأت السماء تمطر قبل لحظات من غروب الشمس، مطراً ناعماً لا يطرطق على سطح التوتياء، نوعاً من الرذاذ أوهمنا بأننا

١ Coco–Beach: مطعم مختص بتقديم الأصداف البحرية في نيس.

Twitter: @ketab_n

في غرفة في توكيه أو كابورغ[1].

– أين يقع كوكو – بيتش؟ سألت سيلفيا.

في اتجاه أنتيب[2]؟ كاب فرّا[3]؟ أو حتى أبعد؟ كوكو – بيتش... يثير هذا الاسم أصداء وروائح عطرة تذكّر ببولينزيا التي تمتزج في ذهني بشواطئ سان – تروبيه[4]. تاهيتي، موريا...

– أتظن أنه بعيد عن نيس؟

كنت أخشى السفر مسافة طويلة بالسيارة. لطالما حاذرتُ تلك الجولات المتأخرة على الحانات الليلية التي يكون عليك في ختامها أن تنتظر رضى بعض الساهرين لكي يوصلك بسيارته إلى منزلك. سيكون هو سكران وستجد نفسك تحت رحمته طول الطريق.

– وإذا أخلفنا الموعد؟ قلت لسيلفيا.

سوف نطفئ نور الغرفة. سيدفعان باب سياج نُزل سانت – آن ويجتازان الحديقة، وستفتح المالكة الباب – النافذة في الصالون. وستُسمع أصواتهما على الشرفة. وسيدقّ أحدٌ ما الباب دقات

١ Touquet ou Cabourg: بلدتان ساحليتان واسما فندقين فيهما.

٢ Antibes: مدينة ساحلية جنوب فرنسا.

٣ Cap Ferrat: مدينة بين نيس وكان.

٤ Saint—Tropez: مدينة ساحلية جنوب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

متتابعة، وسيُنادى علينا: "هل أنتما هنا؟" صمت. ثم سنشعر بالارتياح ونحن نسمع وقع خطوات تتباعد وباب السياج يغلق مجدداً. وأخيراً نبقى وحدنا معاً. لا مُتعة توازي هذه المتعة.

ثلاث ضربات على الزمّور أطلقت صفيراً مخنوقاً كذاك الذي تطلقه الباخرة للإعلان عن حضورها. انحنيت على النافذة ورأيت قامة نيال المنتظر وراء السياج.

على الدرج، قلت لسيلفيا:

– إذا كان كوكو – بيتش بعيداً جداً سنطلب منهما البقاء في الحيّ. سنقول لهما إن علينا الرجوع باكراً لأننا ننتظر اتصالاً هاتفياً.

– أو ننسحب فجأةً، قالت سيلفيا.

كان المطر قد انقطع. رفع نيال ذراعه عالياً نحونا.

– خشيتُ ألاّ تسمعا الزمّور.

كان يرتدي صدرية صوفية عالية القبّة وسترته القديمة المصنوعة من جلد الأيّل. كانت السيارة متوقفة عند تقاطع جادة شكسبير، سيارة سوداء، واسعة، لم أعرف طرازها، لعلها ألمانية، لا تحمل لوحة دبلوماسية بل لوحة ذات رقم مسجّل في باريس.

– كان عليَّ أن أغيّر السيارة، قال نيال، الأخرى ما عادت تسير.

فتح لنا أحد الأبواب. كانت باربرا نيال تنتظر في المقعد

Twitter: @ketab_n

الأمامي مرتديةً سترتها المصنوعة من فرو السنّور السيبيري. جلس نيال خلف المقود.

– وإلى الأمام نحو كوكو – بيتش، قال وهو يقوم بنصف استدارة مباغتة.

انحدر في شارع كافاريلّي بسرعة زائدة في رأيي.

– هل كوكو – بيتش في مكان بعيد؟ سألتُ.

– أبداً، قال نيال. هو بعد المرفأ مباشرةً. إنه المطعم المفضّل لدى باربرا.

التفتت نحونا. ابتسمت لنا. وكانت تفوح منها رائحة الصنوبر.

– أنا على ثقة بأن هذا المكان سيعجبكما، قالت.

التففنا حول المرفأ. ثم مررنا أمام منتزه فيجييه[1] والنادي البحري. أقحم نيال السيارة في جادة متعرّجة تحاذي البحر، وتوقف على مستوى جسر عائم تضيئه لافتة منيرة.

– كوكو – بيتش! لينزل الجميع!

نَمَّ صوته عن بهجة مصطنعة. لماذا أراد هذا المساء أن يلعب دور المفرِّح؟

عبرنا الجسر العائم. كان نيال يُمسك بذراعيْ كلٍّ من زوجته

1 Parc Vigier

Twitter: @ketab_n

وسيلفيا على نحو أليف. وكانت الريح تعصف، فقال:

– انتبهوا لئلا تسقطوا من فوق الجسر.

هبطنا درجاً ضيقاً درابزينه عبارة عن حبل غليظ أبيض مجدول وسلكنا ممراً نفذنا منه إلى صالة المطعم.

تقدّم إلينا مدير خدم يرتدي طقماً أبيض وقبعة بحري في سفينة ترفيه:

– باسم مَن حجزتم، يا سيدي؟

– الكابتن نيال.

تحيط بالصالة كوة كبيرة مزجّجة تعلو عن سطح البحر نحو عشرة أمتار. قادنا بحري الترفيه إلى إحدى الطاولات القريبة من الكوّة المزجّجة. أراد نيال أن نجلس، سيلفيا وأنا، إلى جانب الطاولة من حيث يمكننا أن نرى مشهداً شاملاً لمدينة نيس. وكان في الصالة عدد قليل من الزبائن يتحدثون بصوت خفيض.

– ينشط المطعم في الصيف خصوصاً، قال نيال. يرفعون السقف فيصبح المكان شرفة في الهواء الطلق. تخيّلوا أن البستاني القديم الذي كان عند والدي هو الذي أنشأ هذا المطعم منذ حوالي عشرين سنة...

– أما زال هو ربّ العمل؟ سألته.

– لا، ويا للأسف. لقد مات.

Twitter: @ketab_n

هذا الجواب خيَّب أملي. لم يكن مزاجي طيّباً ذلك المساء، وكنت أودّ لقاء البستاني القديم لدى والد نيال. بذلك أطمئن إلى أن نيال ينحدر حقاً من عائلة أميركية ثرية ومحترمة جداً.

كان نُدُل المطعم يرتدون، على غرار مدير الخدم، سترة بيضاء بأزرار ذهبية وبنطلوناً أبيض، غير أن رؤوسهم مكشوفة. وقد عُلّق فوق باب المدخل طوق نجاة أبيض يحمل هذه الكتابة بحروف زرقاء: كوكو - بيتش.

- منظر جميل، أليس كذلك؟ قال نيال متلفتاً إلى الوراء بحركة سريعة من جذعه.

كان خليج ديزانج[1] منكشفاً كله أمام سيلفيا وأمامي بما فيه من ثقوب الظلال ومن أضواء مشعّة من مكان إلى آخر. وكانت كشافات النور تضيء الصخور والنُّصب المقام تكريماً للموتى أسفل تلّ الحصن. هنالك كانت حديقة ألبير الأول مضاءة وكذلك الواجهة البيضاء والقبّة الوردية لفندق نغرسكو.

- يُخيَّل أننا على متن مركب، قالت باربرا.

نعم. كان أفراد الطاقم، بزيّهم الأبيض، يتنقلون بصمت بين الطاولات، وقد لاحظت أنهم يلبسون أحذية رياضية.

- ألا تشعران بدوار البحر، على الأقل؟ قال نيال.

---

١ La Baie des Anges: خليج الملائكة.

Twitter: @ketab_n

هذا السؤال أثار فيَّ شيئاً من الضيق. أم أنها قطرات المطر على الكوى المزجّجة والريح التي تصفع العلم الأبيض الذي يحمل شارة كوكو – بيتش والمثبت على جسر عائم، أمام المطعم، كما لو أنه على مقدّمة يخت.

قدّم أحد النُدل قائمة طعام لكل واحد منا.

– أنصحكما بحساء السمك وأصداف البحر[1]، قال نيال، أو، إن أحببتما، بصلصة الثوم وزيت الزيتون[2] التي يعدّونها هنا ولم آكل ألذَّ منها في أي مكان آخر.

يبدو الأميركيون في بعض الأحيان ذوّاقة، وهم على ما يتّصفون به من جدية وطيبة يصبحون خبراء مجرّبين في ما يخصّ المطبخ والخمور الفرنسية. غير أن نبرة نيال، وتعابير وجهه، وحركة إبهامه الفظّة، وهذه الطريقة التي امتدح بها حساء السمك وأصداف البحر، وصلصلة الثوم وزيت الزيتون، كل ذلك ذكّرني بأماكن محدّدة. فجأةً، شممتُ لدى نيال آثار روائح كريهة كتلك التي تعبق في كانبيير[3] وحيّ بيغال[4].

1 La Bourride

2 Aïoli

٣ Canebière: شارع رئيسي في مدينة مرسيليا.

٤ Pigalle: حي في باريس تكثر فيه بائعات الهوى.

Twitter: @ketab_n

تبادلنا، سيليفي وأنا، النظرات طوال مأدبة العشاء. أعتقد أننا فكرنا في الأمر نفسه: كان من السهل جداً أن نتركهما فجأةً... غير أن إمكانية الوصول إلى المرفأ منعتني. انطلاقاً من المرفأ يمكننا أن نختفي في شوارع نيس، لكن حتى الوصول إلى هناك كان علينا أن نمشي على طول جادة مقفرة وسوف يلحقان بنا بسيارتهما. سوف يتوقفان ويطلبان تفسيراً لتصرّفنا. وأن نجيبهما، أو نعتذر إليهما، أو نرسلهما إلى الجحيم... كل ذلك لا طائل من ورائه لأنهما يعرفان عنواننا. في عُرفي، كانا ثقيلي الظل مثل فيلكور. لا، الأفضل أن نتدبّر الأمور بلطف.

تفاقم انزعاجي عند تناول التحلية. مال نيال نحو سيلفيا، ولمس الماسة بسبّابته، قائلاً لها:

– إذاً، ما زلت تحملين حجرك؟

– هل تعلمتَ التكلم بلغة العامة في مدارس موناكو؟ سألته. غضَّن عينيه، وبانت القسوة في نظرته.

– كل ما في الأمر أنني سألت زوجتك عما إذا كانت تحمل حجرها دائماً...

هو، الودود جداً، غدا عدوانياً على نحو مفاجئ. ربما شرب كثيراً، أثناء العشاء. بدت باربرا منزعجة وأشعلت سيجارة.

Twitter: @ketab_n

– زوجتي تحمل حجراً، قلت له، لكن هذا الحجر فوق إمكانياتك.

– أتظن ذلك؟

– أنا على يقين منه.

– ومَن جعلك تظن ذلك؟

– حدس.

انفجر ضاحكاً، وبدت نظرته لطيفة، وراح يرمقني بوجهٍ بشوش.

– هل أنت غاضب مني؟ لكنني أردت أن أمزح فقط. كانت مزحة ثقيلة... أنا آسف.

– أنا أيضاً، كنت أمزح، قلت له.

مرّت لحظة صمت.

– إذاً، إن كنتما تمزحان، قالت باربرا، فكل شيء على ما يُرام.

أصرّ على أن نشرب لا أدري أي كحول مصنوع من الخوخ أو الإجّاص. رفعت الكأس إلى شفتي وتظاهرت بأنني أبتلع جرعة. أما سيلفيا فشربت الكأس دفعةً واحدة. لم تقل شيئاً، وكانت تفرك بأصابعها "حجرها"...

– أنتِ أيضاً غاضبة مني؟ سألها نيال بصوت متواضع. بسبب حكاية الحجر هذه؟...

Twitter: @ketab_n

استعاد لُكنته الأميركية الخفيفة ولم يعد هو ذلك الرجل نفسه. كان لديه شيء من الظرف والحياء.

– أسألك المعذرة. أودّ أن تنسي مزحتي الحمقاء.

ضمّ يديه في حركة تضرّع طِفلية:

– هل تسامحينني؟

– أسامحك، قالت سيلفيا.

– آسف حقاً بشأن قصة الحجر هذه...

– حجر أو لا، قالت سيلفيا، هذا لا يهمني.

كانت هي الآن التي تتكلم بلهجة شرق باريس المتثاقلة.

– أهكذا هو غالباً؟ سألتْ باربرا مشيرةً بإصبعها إلى نيال.

كانت الأخرى مرتبكة. وأخيراً غمغمت:

– أحياناً.

– وما الذي تفعلينه لتهدئته؟

كان السؤال قد سقط قاطعاً مثل ساطور. انفجر نيال ضاحكاً.

– يا لها من امرأة رائعة، قال لي.

كنت منزعجاً. ابتلعت جرعة كبيرة من الكحول.

– وكيف سننهي السهرة؟ قال نيال.

هذا ما كنت أتوقّعه. لم نصل بعد إلى ختام محنتنا.

– أعرف مكاناً ظريفاً جداً في كان، قال نيال. يمكننا أن

Twitter: @ketab_n

نحتسي كأساً فيه.

– في كان؟

ربَّت نيال على كتفي بلطف.

– هيّا، يا عزيزي، لا تتّخذ هذه الهيئة... كان ليست مكاناً مُهلِكاً...

– يجب أن نعود إلى فندقنا، قلت. أنتظر اتصالاً هاتفياً حوالي منتصف الليل.

– هيّا، هيّا... سوف تهتف أنت من كان... لن تتخلّى عنا...

التفتُّ يائساً نحو سيلفيا. كانت هادئة الأعصاب. غير أنها جاءت لنجدتي أخيراً:

– أنا مُتعَبة... لا أرغب في قطع مسافة طويلة بالسيارة ليلاً...

– مسافة طويلة بالسيارة؟ حتى كان؟ هل تهزئين بي... أسمعتِ يا باربرا؟ مسافة طويلة بالسيارة حتى كان... حتى كان، ترى أن هذه مسافة طويلة...

ولا كلمة، وإلا لوجدنا أنفسنا تحت رحمة مطرقة آلية لا تكفّ عن الترديد: "حتى كان، حتى كان..." وإذا ما عارضناه ازداد التصاقاً بنا كهذه العِلكة التي نحاول عبثاً انتزاعها من كعابنا بحكّ هذه الأخيرة على حافة الرصيف؟

– أعدكم بأن نصل إلى كان في عشر دقائق... في هذا الوقت

Twitter: @ketab_n

تجري السيارة جيداً...

لا، لا يبدو عليه أنه سكران. ويتكلم بصوت عذب. هزّت سيلفيا كتفيها.

– إن كنت مصرّاً على ذلك، هيّا بنا إلى كان...

حافظت على هدوئها، وخصّتني بطرفة عين لا تُلحظ.

– سوف نتحدّث عن الماسة، قال نيال. أعتقد أنني وجدت لكما زبوناً. أليس كذلك، يا باربرا؟

ابتسمت لنا من دون أن تجيب.

كان النُدل ذوو السترات البيضاء يتنقلون بين الطاولات وتساءلت كيف يمكنهم المشي بخطى ثابتة. خلف الكوى المزجّجة بدت لي أنوار نيس بعيدة أكثر فأكثر ومشوّشة. غادرنا المكان. وكان كل شيء يتمايل حولي.

لحظة الصعود إلى السيارة، قلت لنيال:

– أرغب حقاً في أن توصلنا إلى الفندق... لا أريد أن أفوّت هذا الاتصال الهاتفي.

نظر إلى ساعته، وأشرق وجهه بابتسامة عريضة.

– هل تنتظر حقاً هذا الاتصال الهاتفي في منتصف الليل؟ تجاوز الوقت منتصف الليل بنصف ساعة... لم يعد لديك أي عذر لمغادرتنا، يا عزيزي...

Twitter: @ketab_n

جلسنا في المقعد الخلفي، سيلفيا وأنا. أطبقت باربرا حاملة سجائرها الذهبية، والتفتت نحونا.

– أليس لديكما سيجارة؟ سألت. أنا نفدت سجائري.

– لا، أجابت سيلفيا بجفاء. ليس لدينا سجائر.

أمسكت يدي وضغطتها على ركبتها. انطلق نيال بالسيارة.

– أنت مصرّ حقاً على أخذنا إلى كان؟ سألت سيلفيا. مُمِلّة كان...

– تتكلمين عمّا لا تعرفينه، قال نيال بلهجة متعطّفة.

– نحن لا نحب الحانات الليلية، ألحّت سيلفيا.

– لكنني لا آخذكما إلى حانة ليلية...

– إلى أين إذاً؟

– هذه مفاجأة.

كان يقود بسرعة أقل مما كنت أخشى. أدار جهاز الراديو بصوت خفيض. مررنا مجدداً أمام المبنى الأبيض لنادي الرياضة المائية ومنتزه فيجييه[1]. وبلغنا المرفأ.

ضغطت سيلفيا يدي. ملتُ نحوها. وبحركة من ذراعي نحو باب السيارة أردت أن أُفهمها أن بإمكاننا حينما نتوقف عند إشارة المرور الحمراء الخروج من السيارة. اعتقدتُ أنها فهمت

1 Parc Vigier

Twitter: @ketab_n

لأنها هزّت رأسها.

– أنا مولع بهذا اللحن، قال نيال.

رفع صوت الراديو، والتفت إلينا.

– هل تحبانه أنتما أيضاً؟

لم نردّ، لا أنا ولا هي. كنت أفكر في المسار الذي سنتبعه في اتجاه كان. ستكون هنالك إشارة توقف عند حديقة ألبير الأول. والأفضل لنا هو النزول من السيارة في جادة الإنكليز والتواري في أحد الشوارع التي تتقاطع عمودياً مع الجادة، حيث لا يستطيع نيال المرور بسبب الاتجاه الوحيد.

– لم يعد لديّ سجائر، قالت باربرا.

كنا قد وصلنا إلى رصيف كاسيني[1]. أوقف السيارة.

– أتريدين أن يذهب أحدنا لشراء سجائر؟ سأل نيال.

التفت نحونا.

– ألا يزعجك الذهاب لجلب سجائر من أجل باربرا؟

قام بنصف استدارة، ثم أوقف السيارة مجدداً في بداية رصيف لي دو – إيمانويل[2].

1 Quai Cassini

2 Quai des Deux-Emmanuel

Twitter: @ketab_n

– أترى أول مطعم على الرصيف؟ مطعم غاراك[1]... ما زال مفتوحاً... اطلب منهم علبتين من نوع كرافن... إذا وجدتَ مانعاً من قبلهم قل لهم إن السجائر مطلوبة لي... السيدة غاراك تعرفني منذ الصغر.

ألقيت نظرة على سيلفيا. بدا أنها كانت تنتظر قراراً مني. أعطيتها إشارة سلبية من الرأس. لم يحن الوقت بعد لمغادرتهما فجأةً. يجب أن نكون في وسط نيس للقيام بذلك.

هممت بفتح الباب، لكنه كان مقفلاً.

– اعذرني، قال نيال.

ضغط زرّاً، في مستوى عتلة السرعة، وهذه المرة انفتح الباب.

دخلت إلى غاراك. صعدت الدرج المؤدي إلى المطعم. وجدت امرأة شقراء جالسة وراء كوّة الملابس. ومن صالة المطعم كانت تصلني ضوضاء أحاديث.

– لديكم سجائر؟ سألت.

– من أي نوع؟

– كرافن.

– آه لا... ليس لدي سجائر إنكليزية. قدّمت إليّ طبقَ السجائر.

---

1 Garac

Twitter: @ketab_n

- لا بأس... سآخذ سجائر أميركية.

اخترت علبتين كيفما اتفق. ناولتها ورقة مالية من فئة مِئة فرنك. فتحتْ دُرجاً، ثم آخر. لم تجد الفكّة.

- لا بأس، قلت لها. احتفظي بالباقي.

هبطت الدرج. وعندما خرجت من المطعم كانت السيارة قد اختفت.

انتظرت على رصيف كاسيني. لا شك في أن نيال ذهب ليملأ خزان السيارة بالوقود في النواحي فلم يعثر على محطة لخدمة السيارات. والسيارة سوف تكون أمامي بين لحظة وأخرى، ومع مرور الوقت شعرت بالذعر يستولي عليّ. لا يمكنني البقاء بلا حراك في الانتظار، فرحت أذرع الرصيف جيئةً وذهاباً. وأخيراً نظرت إلى ساعة يدي. كانت تقترب من الثانية صباحاً.

خرجت جماعة صاخبة من مطعم غاراك، وأخذت أبواب سيارات تُطبق، ومحركات تنطلق، فيما كان بعض الأشخاص يواصلون أحاديثهم على الرصيف، وكنت أسمع ضوضاء أصواتهم وقهقهاتهم. وعند حافة الحوض كانت هنالك ظلال أشخاص يُنزلون صناديق ويكدّسونها أولاً بأول قرب شاحنة مغطّاة وقد أُطفئت أضواؤها.

مضيتُ نحوهم. توقفوا عن العمل. كانوا متّكئين على

Twitter: @ketab_n

الصناديق وهم يدخّنون.

– ألم تروا سيارة منذ قليل؟ سألت.

رفع أحدهم رأسه نحوي.

– أية سيارة؟

– سيارة سوداء كبيرة.

كنت بحاجة إلى أن أكلّم شخصاً ما، وأن لا أحتفظ بذلك لي وحدي.

– أصدقاء كانوا ينتظرونني في سيارة سوداء. هنالك، أمام البناية... ذهبوا من دون أن يخبروني.

لا، لا يفيد في شيء أن أشرح الأمر لهم. لم أجد الكلمات اللازمة لذلك. ثم إنهم لا يصغون إليّ. مع ذلك لاحظ أحدهم وجهي المتشنّج.

– سيارة سوداء من أي طراز؟ سأل.

– لا أدري.

– لا تعرف طراز السيارة؟

لا ريب في أنه طرح عليّ هذا السؤال لكي يتبيّن إن كنت سكراناً أم أنني في كامل قواي العقلية، وكان يرمقني مرتاباً.

– لكن لا، لا أعرف طراز السيارة.

كان أمراً مهولاً ألاّ أعرف ذلك.

Twitter: @ketab_n

صعدت جادة سيمييه. خفق قلبي ابتهاجاً على حين غرّة. لمحت من بعيد الكتلة المظلمة لسيارة متوقّفة أمام السور المفرّغ لفيلا نيال. وعندما اقتربت تبيّن لي أنها لم تكن السيارة التي كنّا فيها منذ قليل، وإنما هي تلك التي تحمل لوحة دبلوماسية.

قرعت الجرس مراراً. لم يردّ أحد. حاولت أن أدفع باب السياج لكنه كان مقفلاً. اجتزت الجادة. في ذلك القسم من المنزل حيث يمكنني أن أرى، من وراء الدرابزين، لم يكن ثمة ضوء. هبطت الجادة مجدداً ودخلت غرفة الهاتف الواقعة في الأسفل عند المنعطف، في مستوى الماجستيك. طلبت رقم هاتف نيال وتركته يرنّ طويلاً، لكن لم يردّ أحد كما حصل عند السياج، عندئذٍ سلكت الجادة مرة أخرى حتى فيلا نيال. كانت السيارة لا تزال هناك، ولست أدري لِمَ حاولت أن أفتح الأبواب واحداً تلو الآخر لكنها كانت مقفلة بالمفتاح، وكذلك الصندوق الخلفي. ثم إنني هززت باب السياج على أمل أن ينفتح، ولكن دون جدوى. ركلت السيارة والسياج عدّة مرّات غير أنني لم أصل إلى نتيجة. كان كل شيء ينغلق في وجهي، ولم أعثر

Twitter: @ketab_n

على أصغر شقّ أنفذ منه، ولا أي اتّصال. كل شيء كان محكم الإغلاق، نهائياً.

كانت شوارع المدينة ميتة وأنا أسير حتى نُزل سانت - آن. كانت تمرّ سيارات قليلة أدقق فيها النظر الواحدة تلو الأخرى، لكن لم تكن أي منها سيارة آل نيال. حتى لَيُظنّ أنها كانت فارغة. حاذيت حديقة ألزاس - لورين، ولمحت سيارة سوداء بحجم سيارة نيال، مركونة عند تقاطع جادة غامبيتا. كان محركها دائراً، ثم توقف. اقتربت منها غير أنني لم أرَ شيئاً عبر زجاج النافذة المعتم. انحنيت حتى كدت ألصق جبهتي بواقية الريح. على المقعد الأمامي كانت امرأة شقراء تجلس منحرفة، وقد أسندت جذعها إلى المقود، وأدارت ظهرها لرجل يحاول أن يلتصق بها، وكان يبدو عليها أنها تقاوم. كنت قد ابتعدت عندما برز رأس من خلال زجاج النافذة الذي كان قد أُنزل، رأس رجل ذي شعر داكن مردود إلى الوراء:

- أهذا يعنيك، أيها المتلصّص؟

أعقبت ذلك ضحكة ثاقبة أطلقتها المرأة وبدا لي أنّ صداها يتردد على امتداد شارع كافاريلّي.

كان السياج المشبك لنُزل سانت - آن مقفلاً، وظننت أنني لن أتمكّن من فتحه أبداً، هو أيضاً. غير أنني دفعته بكل ما أوتيت

Twitter: @ketab_n

من قوة وقد ثبّتُّ قدمي على الأرض وما لبث أن انفتح أخيراً. كان عليّ أن أتلمّس طريقي في الممرات وفي الحديقة المظلمة حتى بلغت سلّم الخدمة.

عندما دخلت إلى الغرفة وأشعلت المصباح المعلّق راودني لأول وهلة شعور بالتعزية لفرط ما كان حضور سيلفيا حيّاً هنا. كان أحد أثوابها ملقى على مسند الأريكة الجلدية، وملابسها الأخرى مرتّبة في خزانة الحائط التي تعرّفت في داخلها على حقيبة سفرها، وأدوات زينتها ما زالت على الطاولة الصغيرة المصنوعة من خشب أبيض قرب المغسلة. ولم أتمالك أن أشمّ قارورة عطرها.

تمدّدت على السرير بكامل ثيابي وأطفأت النور معتقداً أنني سأتمكّن من التفكير بصورة أفضل في السواد. غير أن الظلمة والصمت التفّا عليّ كالكفن، وشعرت بأنني أختنق. وشيئاً فشيئاً حلّ مكان هذا الشعور إحساس بالفراغ والقنوط. كان وجودي وحيداً على السرير أمراً لا يطاق. أضأت مصباح السرير وحدّثت نفسي بصوت خفيض أن سيلفيا لن تتأخر عن اللحاق بي في هذه الغرفة. وهي تعلم أنني أنتظرها هنا. عندئذٍ أطفأت مجدداً المصباح لكي أحسن الإصغاء إلى صرير السياج المشبك الذي سوف ينفتح، وإلى وقع خطواتها على طول الممر وعلى درجات السلّم.

Twitter: @ketab_n

ما عدت سوى مُسَرْنم يذهب من نُزُل سانت – آن إلى فيلا آل نيال. رننتُ الجرس مطوّلاً من دون أن يردّ أحد. كانت سيارة الهيئة الدبلوماسية لا تزال مركونة في المكان نفسه، أمام السياج.

كان رقم هاتف آل نيال مسجّلاً في دليل منطقة ألب – ماريتيم[1] مع هذه الإشارة: مكتب السفارة الأميركية ٥٠ مكرّر، جادة سيميه. هتفتُ إلى السفارة الأميركية في باريس وسألتهم إن كانوا يعرفون شخصاً يدعى فيرجيل نيال يسكن في أحد مبانيهم، في نيس، ٥٠ مكرّر، جادة سيميه. وقلت لهم إنه اختفى بين يوم وآخر وإنني قلق بشأنه. لا، لم يسمعوا أبداً بالسيد فيرجيل نيال، أما فيلا شاتو أزور، الكائنة في جادة سيميه، فكانت تُستخدم مسكناً لموظفين في السفارة، لكنها لم تعد مسكونة منذ بضعة أشهر، وقريباً سيقيم فيها قنصل أميركي. وهو مَن يجب أن أتوجّه إليه.

كنت أقرأ جميع الصحف ولا سيّما تلك الصادرة في المنطقة، وحتى الصحف الإيطالية، وأدقّق في أخبار الحوادث المتفرّقة. وقد لفت انتباهي واحدٌ منها. ليلة اختفاء سيلفيا كانت سيارة ألمانية، من طراز أوبل، مسجّلة في باريس، قد انحرفت عن

1 Alpes – Maritimes

Twitter: @ketab_n

الطريق في المكان المعروف باسم درب مون – غرو[1]، بين مونتون[2] وكاستيلاّ[3] وتحطمت في قعر واد. اشتعلت فيها النيران وعُثِرَ في داخلها على جثتين مفحّمتين كلّياً لم يمكن التعرّف إلى هويّتَيهما.

قمت بدورة حول جادة الإنكليز ودخلت إلى المرآب الكبير الكائن أمام شارع كرونستاد[4] تماماً.

سألت أحد الميكانيكيين إن كانت توجد على سبيل الصدفة سيارة أوبل في المرآب.

– لماذا؟

– ... هكذا...

هزّ كتفيه:

– هناك، عند الزاوية... في المؤخرة.

نعم، كانت سيارة شبيهة بسيارة آل نيال حقاً.

أردت أن أزور كل الأماكن التي كنّا قد ذهبنا إليها صحبة آل نيال، آملاً أن أقع لهما على أثر، على خيط موصل، أو لربّما

١ درب الجبل الكبير.

2 Chemin du Mont – Gros

3 Menton – Castellar

4 Rue de Cronstadt

Twitter: @ketab_n

أراهما قادمين مع سيلفيا: كتلك الأفلام التي تُرجَع إلى الوراء على طاولة ترتيب المشاهد والتي يتمّ التدقيق في تفاصيلها مراراً وتكراراً. لكن لحظة خروجي من مطعم غاراك حاملاً بيدي علبتي السجائر الأميركية انكسر الفيلم أو كنت قد وصلت إلى نهاية البكرة.

ما عدا ذات مساء، في المطعم الإيطالي الكائن في شارع بونشيت[1] حيث كان آل نيال قد واعدانا في المرّة الأولى.

كنت قد اخترت الطاولة التي جلسنا إليها في ذلك اليوم، قرب المدفأة الضخمة، وجلست على الكرسي نفسه. نعم، كنت آمل من خلال العودة إلى الأماكن عينها وتكرار الحركات ذاتها أن أنجح أخيراً في أن أعقد مجدداً خيوطاً غير مرئيّة.

سألت مديرة المطعم وكل واحد من الخدم إن كانوا يعرفون آل نيال. هذا الاسم لا يعني لهم شيئاً، ومع ذلك كان نيال قد أكّد لنا أنه من روّاد المكان. كان المتعشّون يتكلمون بأصوات مرتفعة وقد ضاق صدري بهذا الضجيج حدّ أنني تساءلت عن سبب وجودي هناك، وأين كنت من قبل.

أخذت أحداث حياتي تتضبَّب تدريجاً إلى أن اضمحلّت. لم يبقَ إلا هذه اللحظة، والمتعشّون، والمدفأة الضخمة، ولوحات

1 Rue des Ponchettes

Twitter: @ketab_n

غاردي[1] المزيّفة المعلّقة على الجدران وهمهمة الأصوات... لا شيء سوى هذه اللحظة. لم أجرؤ على النهوض ولا مغادرة هذه الصالة؛ فما أن أجتاز عتبة الباب حتى أنزلق في الفراغ.

دخل رجلٌ مُلتحٍ متقلّداً آلة تصوير شمسي ودخلت معه نفحة من الهواء البارد في الخارج.

تخلّصت فجأةً من خدري وتعرّفت إلى المصور ذي السترة المصنوعة من المخمل ووجهِ الرسّام الفاشل الذي كان يرابط أمام فندق البحر المتوسط والتقط صورة لآل نيال ولسيلفيا ولي. هذه الصورة ما زلت محتفظاً بها في محفظتي.

دار حول الطاولات سائلاً المتعشين إن كانوا يريدون "صورة تذكارية"، لكن لا أحد طلب منه ذلك. ثم وقع نظره عليّ. بدا متردداً، لأنني كنت وحيداً بالتأكيد.

– صورة؟

– نعم، إن شئت.

رفع آلته نحوي وبهرني الومّاض.

انتظر أن تجفّ الصورة بين أصابعه ورمقني مُستطلعاً.

– وحدكَ في نيس؟

– نعم.

١ فرنشيسكو غاردي: رسام إيطالي (١٧١٢ – ١٧٩٣).

Twitter: @ketab_n

– هل أنت سائح.

– ليس تماماً.

دسّ الصورة في مغلّف كرتوني وناولني إياه.

– خمسون فرنكاً.

– هل ترغب في احتساء كأس؟ قلت له.

– بطيبة خاطر.

– أنا أيضاً كنت مصوّراً في ما مضى، قلت له.

– آه، حسناً.

جلس قُبالتي ووضع آلة التصوير على الطاولة.

– سبق لك أن صوّرتني مع آخرين في لا برومناد ديزنغليه، قلت له.

– لا أتذكر كل الناس. الصور تتتالى وتختفي من الذاكرة، كما تعلم.

– نعم، تختفي...

– إذن، كنتَ مصوّراً، أنت أيضاً؟

– نعم.

– في أي نوع؟

– أوه، قليلاً من كل نوع.

كانت هذه المرة الأولى التي أمكنني فيها التكلم مع أحدهم.

Twitter: @ketab_n

أخرجت الصورة من محفظتي. في البدء ألقى نظرة شاردة عليها. ثم قطّب حاجبيه.

– هذا أحد أصدقائك؟ سألني، مشيراً إلى نيال.

– ليس حقاً.

– تصوّر أنني تعرّفت إلى هذا الشخص في ما مضى... لكن لم أرَه منذ سنوات... حتى إنني لم أتذكّر أنني صوّرته آنذاك... الأشياء تختفي بسرعة...

قدّم لنا النادل كأسين من الشمبانيا. تظاهرت بأنني أشرب جرعة. أما هو فابتلع ما في الكأس دفعةً واحدة.

– إذاً، لقد عرفته؟ قلت من دون كبير أمل في أن يجيب، لفرط ما اعتدت على زوغان الأشياء من أمامي.

– نعم... سكنّا في الحيّ نفسه عندما كنا صغيرين... حي ريكييه[1]...

– هل أنت متأكد؟

– حتماً.

– وماذا كان يُدعى؟

ظنَّ أنني أطرح عليه لُغزاً.

– ألسّاندري... بول أليسندري... هل جوابي صحيح؟

1 Riquier

Twitter: @ketab_n

لم يرفع بصره عن الصورة؟

– والآن ماذا يفعل من عمل صالح، ألسّاندري؟

– لا أعلم على وجه الدقة، قلت.

– عندما رأيته للمرة الأخيرة كان يعمل نخّاساً في كامارغ[1]...

رفع رأسه وقال لي بلهجة بين الساخرة والارتسامية:

– لديك عِشرة سوء، يا سيد.

– لماذا؟

– بدأ بول ساعياً في روهل[2]... وكان مبدّلاً في الكازينو البلدي... ثم ساقياً... صعد بعدها إلى باريس ولم أرَه مذذاك... سُجن... لو كنت مكانك لحذرت منه...

حدّق فيَّ بعينيه الثاقبتين.

– أحب أن أحذّر السيّاح...

– أنا لست سائحاً، قلت.

– آه حسناً؟ هل تسكن في نيس؟

– لا.

– نيس مدينة خطرة، قال. يصادف المرء فيها أشخاصاً خطِرين أحياناً...

1 Camargue

٢ Ruhl: مجمع ترفيهي في نيس.

Twitter: @ketab_n

– ما كنت أعلم أنه يدعى ألسّاندري، قلت له، كان يقدّم نفسه باسم نيال.

– آه... قلت إنه يقدّم نفسه باسم ماذا؟

– نيال.

تهجّيت له حروف الاسم.

– هكذا إذاً... بول يتسمّى باسم نيال؟... نيال... كان هذا أميركياً يسكن في جادة سيميه عندما كنا صبية... في فيلا ضخمة... شاتو دازور... كان بول يصحبني لألعب معه في حديقة تلك الفيلا... بُعيد الحرب... كان هو ابن البستاني...

اجتزت ساحة ماسّينا. كانت إدارة الشرطة في مكان أبعد قليلاً، على مقربة من حظائر القصب التي تسيّج موقع الكازينو البلدي القديم حيث كان بول ألسّاندري يعمل "مبدّلاً". ماذا تعني كلمة "مبدّل"؟ رحت أذرع المكان جيئةً وذهاباً ناظراً إلى العربات التي تدخل وتخرج من محطة السفريات. وكما لو كنت أخشى التراجع إلى الوراء اندفعت إلى الأمام مجتازاً سقيفة المدخل.

سألت الرجل الذي يجلس وراء مكتب في بهو المدخل إلى أي قسم يجب أن أتوجه بشأن "المفقودين".

– أي اختفاءات؟

Twitter: @ketab_n

ندمت لتوّي على مبادرتي. الآن سوف يطرحون عليّ أسئلة ويجب أن أجيب عنها بالتفصيل. لن يكتفوا بالإجابات المتملّصة. وبدأت أسمع الطقطقة الرتيبة للآلة الكاتبة.

– فقدان شخص ما، قلت.

– الطابق الأول. المكتب رقم ٢٣.

فضّلت صعود الدرج بدل استخدام المصعد.

ومضيت في رواق أخضر شاحب تتابع الأبواب على طوله بأرقامها المفردة: ٣، ٥، ٩، ١١، ١٣... ثم ينعطف الرواق إلى اليسار، في زاوية قائمة. ١٥، ١٧، ٢٣. كانت الكرة المنيرة في السقف تلقي ضوءاً ساطعاً على الباب وتجعل عينيّ تطرفان. قرعت الباب مرّات عدّة. رجاني صوت مرتفع أن أدخل.

كان شاب أشقر يلبس نظارة، حديث السن، يضع ذراعيه المتصالبتَين على مكتب معدني. إلى جانبه طاولة صغيرة من خشب فاتح اللون عليها آلة كاتبة مغطاة بغلافها البلاستيكي الأسود.

أومأ إليّ أن أجلس على المقعد في مقابله. جلست.

– الموضوع يتعلق بصديقة اختفت منذ عدّة أيام، قلت وصوتي يبدو لي صوت شخص آخر.

Twitter: @ketab_n

– صديقة؟

– نعم. تعرّفنا إلى شخصين دعوانا إلى مطعم، وبعد تناول طعام العشاء اختفت صديقتي معهما. سيارة أوبل و...

– صديقتك؟

كنت قد تكلمت بوتيرة سريعة جداً كما لو كنت أتوقّع أنه سيقاطعني وأنني لا أمتلك إلا بضع ثوانٍ لأشرح له كل شيء.

– منذ ذلك الحين لم يصلني أي خبر. هذان الشخصان اللذان التقيناهما ادّعيا أنهما يدعيان السيد والسيدة نيال وأنهما يسكنان فيلا في جادة سيميه تملكها السفارة الأميركية. من جهة ثانية، كانا يستخدمان سيارة تحمل لوحة هيئة دبلوماسية ولا تزال مركونة أمام الفيلا.

كان يصغي إليّ واضعاً ذقنه على راحة يده. وما كان بوسعي أن أتوقف عن الكلام. منذ زمن بعيد احتفظت بهذه الأشياء لنفسي من دون أن تُتاح لي الفرصة للإفضاء بها إلى شخص ما.

– لم يكن الرجل يدعى نيال كما أنه لم يكن أميركياً مثلما ادّعى... اسمُه بول ألسّاندري وأصله من نيس... عرفت ذلك من أحد أصدقائه منذ الطفولة وهو مصوّر يرابط على لابرومناد ديزنغليه كان قد التقط صورةً لنا.

أخرجت الصورة من محفظتي وناولته إياها، أمسكها بلطف

Twitter: @ketab_n

بين الإبهام والسبّابة كجناح فراشة ميتة ووضعها على مكتبه، من دون أن ينظر إليها.

– بول ألسّاندري هذا هو الثالث من اليسار. كان ساعياً في فندق روهل... وقضى مدة في السجن.

دفع بطرف إصبعه الصورة نحوي. لم يكترث بهذه الوثيقة، ولم يعر أي اهتمام لبول ألسّاندري مع أنه قضى مدة في السجن.

– كانت صديقتي تحمل معها جوهرة ثمينة جداً...

أوشك كل شيء أن ينقلب رأساً على عقب بالنسبة إليّ. كان يكفي أن أضيف بعض التفاصيل الأخرى حتى تنتهي مرحلة من حياتي، في مكتب إدارة الشرطة هذا. كانت قد حلّت اللحظة – كنت متأكداً من ذلك – التي ينزع فيها غطاء الآلة الكاتبة الأسود ويضع تلك الآلة أمامه على المكتب، ثم يدسّ فيها ورقة ويديرها محدثاً صريراً. ثم يرفع رأسه نحوي ويقول لي بصوت رخيم:

– أنا أصغي إليك.

غير أنه بقي جامداً وصامتاً، وذقنه على راحة يده.

– كانت صديقتي تحمل معها ماسة ثمينة جداً، كرّرت بصوت أشد حزماً.

ما زال صامتاً.

– بول ألسّاندري هذا الذي زعم أنه أميركي كان قد عاين

Twitter: @ketab_n

الجوهرة التي كانت تحملها صديقتي وعرض عليّ أن يشتريها حتى...

جلس مستقيماً، ويداه مبسوطتان على الطاولة، في وضعة مَن يريد أن ينهي محادثة:

– الأمر يتعلّق حقاً بصديقة لك؟ سألني.

– نعم.

– لا تربطك بها إذاً أي صِلة قُربى؟

– لا.

جهازنا يُدعى: الاستقصاءات لمصلحة العائلات، وتلك السيدة لا تنتمي إلى عائلتك، إذا فهمتُ جيداً...

– لا.

– وبناءً عليه...

بسط ذراعيه بحركة عجز ذات دمائة كهنوتية.

– ومن ثم، تعلم أنني معتاد على هذا النوع من الاختفاءات... عمليات فرار، بوجه عام... من قال لك مثلاً إن صديقتك لم تُرد الذهاب في رحلة مع هذين الزوجين وأنها لن تخبرك بأحوالها بعد مرور بعض الوقت؟

كانت لديّ مع ذلك القدرة على أن أغمغم:

– قرأت في الصحيفة أن سيارة من طراز أوبل تحطّمت في

Twitter: @ketab_n

وادٍ بين مونتون وكاستلاّر...

فرك يديه محتفظاً بتلك الدمائة الكهنوتية ذاتها.

- هناك كميّة كبيرة من سيارات الأوبل في الكوت دازور تتحطّم في وديان... لن تحاول مع ذلك أن تحصي كل سيارات الأوبل في نيس وضواحيها التي تتحطّم في الوديان؟

نهض، وأخذ بذراعي ضاغطاً بحزم ولباقة في آن، وقادني حتى باب مكتبه ففتحه وقال:

- آسف... ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً من أجلك...

ودلّني على اللوحة المعلّقة على الباب. وعندما أغلق الباب بقيت لحظة في مكاني، جامداً ومبهوتاً، تحت الكرة المنيرة في الرواق، محدّقاً في الأحرف الزرقاء: "استقصاءات لمصلحة العائلات".

Twitter: @ketab_n

ألفيتُني في حديقة ألبير الأول مع ذلك الشعور بأن لم يعد لي من ملاذ بعد الآن. حقدت على موظف الشرطة ذاك لعدم اكتراثه. لم يمدّ لي يد المساعدة في أية لحظة ولم يُبدِ حتى أبسط مبادئ الفضول المهني، وأوهن عزمي عندما كنت على وشك أن أُفضي إليه بكل شيء. أمر مؤسف بالنسبة إليه. لم تكن القضية عادية كما اعتقدَ. لا. لقد فوّت على نفسه، بسبب خطئه، فرصة الحصول على ترقية.

ربما لم أحسن عرض الأشياء: ما كان عليّ أن أحدّثه عن سيلفيا وإنما عن صليب الجنوب. مقارنةً بقصة هذا الحجر الكريم الطويلة والدامية، ما أهمية حيواتنا، وظروفنا الشخصية البائسة؟ واقعة تنضاف إلى غيرها ولن تكون الأخيرة.

في بداية إقامتنا في نيس اكتشفت في مكتبة شارع فرنسا، التي نشتري منها روايات بوليسية مستعملة، كتاباً من ثلاثة أجزاء ألّفه شخص يدعى ب. بالمان: **معجم تراجم الأحجار الكريمة**. بالمان هذا، وهو خبير المجوهرات لدى محكمة الاستئناف في باريس، أحصى عدة آلاف من الأحجار الكريمة. بحثنا،

Twitter: @ketab_n

سيلفيا وأنا، عن: صليب الجنوب.

خصّص بالمان نحو عشرة سطور لماستنا. كانت من ضمن الجواهر التي سُرقت من الكونتيسة دي باري ليلة ١٠-١١ كانون الثاني/ يناير ١٧٩١ ثم بيعت بالمزاد في لندن بواسطة مؤسسة كريستي في ١٩ شباط/ فبراير ١٧٩٥. ولم يُسمع بتلك الماسة حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧، عندما سُرقت مجدداً من منزل المدعوة فاني روبير دو تسّانكور، الكائن في ٨، شارع سيغون، في باريس، الدائرة السادسة عشرة. أوقف السارق، المدعو سيرج دو لينز، غير أن فاني روبير دو تسّانكور سارعت إلى سحب شكواها مؤكدةً أن لينز كان صديقها.

هذا الحجر لم "يطفُ مجدّداً" - حسب تعبير بالمان - إلا في شباط/ فبراير ١٩٤٣، تاريخ بيعه من قِبل المدعو جان ترّاي إلى المدعو بانيون، لويس. ووفقاً لبطاقة صادرة عن الشرطة في وقت لاحق فقد تمّ البيع بالمارك الألماني. ثم إن لويس بانيون باع هذه الماسة في أيار/ مايو ١٩٤٤ إلى المدعو دو بللوم، فيليب، المعروف باسم باشيو، والمولود في باريس في ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٩١٨ لماريو وويرّي دو هولت، إليان، مجهول محل الإقامة.

أُعدِمت الكونتيسة دو بارّي بالمِقصلة في كانون الأول/

Twitter: @ketab_n

ديسمبر ١٩٤٥؛ واغتيل سيرج دو لينز في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٥؛ وأُعدِم لويس بانيون رمياً بالرصاص في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤. أما بالّون فيليب فقد اختفى، مثل صليب الجنوب، قبل أن تعاود هذه الماسة الظهور على صدر سيلفيا السوداء، ثم تختفي مجدداً. معها...

لكن مع اقتراب هبوط الليل على نيس صوّبت موقف هذا الموظف الذي كان يريد حقاً القيام بتحريات شرط أن تكون في مصلحة العائلات. لو أنه نزع غطاء الآلة الكاتبة وابتدأ الاستجواب ما الذي كان بإمكاني الإدلاء به إليه من معلومات دقيقة بشأن سيلفيا وكل هذه الأحداث المستجدة في حياتي والتي تبدو لي، أنا نفسي، مجتزأة جداً، ومتقطّعة جداً، بحيث يصعب فهمها؟ ثم إنني لا أستطيع البوح بكل شيء. فأنا أحتفظ لنفسي ببعض الأشياء. وغالباً ما أفكّر في ذلك المُلصق السينمائي القديم الذي بقيت أجزاء منه على حظيرة القصب، كان مكتوباً عليه: "الذكريات ليست للبيع".

عدت إلى نُزل سانت – آن. هناك، في صمت غرفتي، سمعت ضجة تعاودني غالباً في أوقات سُهادي: ضجة آلة كاتبة. كانت طقطقة الملامس سريعة جداً، وتتساقط تدريجاً كما يحدث عندما تُضرب الملامس بسبّابتين متردّدتين. ومجدّداً مثل أمامي

Twitter: @ketab_n

موظف الشرطة الأشقر هذا الذي يستجوبني بصوت فاتر. وكان من الصعب جداً الردّ عليه...

كان ينبغي أن أشرح له كل شيء، منذ البداية. لكن هي ذي الصعوبة الكبرى: لا شيء للشرح. منذ البداية لم تكن القضية سوى مسألة محيط ومشهد...

ولسوف أريه الصور التي التقطتُها، في تلك الحِقبة، على ضفاف المارن. صور كبيرة بالأسود والأبيض. كنت قد احتفظت بها ومعها كل ما احتوت عليه حقيبة السفر الخاصة بسيلفيا. في ذلك المساء، وأنا في غرفة نُزل سانت – آن، أخذت أبحث في خزانة الحائط عن الملف الذي كُتِب عليه: "مسابح نهرية".

لم أنظر إلى تلك الصور منذ زمنٍ بعيد. رحت أتأملها منعماً النظر في أقل التفاصيل ودخلت مجدداً المشهد حيث بدأ كل شيء. إحدى تلك الصور، التي كنت قد نسيتها، أثارت فيَّ مزيجاً من الشعور بالرعب والافتِتان فاقمه صمت هذه الغرفة ووحدتي.

كانت الصورة قد التُقطت قبل بضعة أيام من تعرّفي إلى سيلفيا. ظهر في الصورة رصيف أحد المطاعم على ضفاف المارن. وطاولات عليها مظلات للوقاية من الشمس. وأطواف. وأشجار صفصاف متدلية الأغصان. حاولت أن أتذكر: الكلودوش القديم في شنفيبر؟ البافيون بلو أو لو شاتو ديزل جوشم في الفارين؟

Twitter: @ketab_n

كنت متخفياً مع آلة التصوير لكي يحافظ هذا المشهد وهؤلاء الناس على طبيعتهم.

كانت إحدى الطاولات في أقصى المكان، قرب الطوف، من غير مظلة، وحولها رجلان يجلسان جنباً إلى جنب ويتحادثان بهدوء. كان فيلكور أحدهما. وسرعان ما تعرّفت إلى الآخر: ذاك الذي قدّم نفسه إلينا باسم نيال والذي يُدعى، في الحقيقة، بول ألسّاندري. ما أغرب رؤيتهما هناك، جالسين على ضفة المارن، كما لو أن الدودة كانت، منذ البداية، في الثمرة.

Twitter: @ketab_n

نعم، تعرّفت إلى سيلفيا هيرو، زوجة فيلكور، ذات صباح من فصل الصيف، في مسبح بيتش دو لافارين[1]. كنت قد توقفت على ضفاف المارن منذ بضعة أيام لالتقاط صور. وكان ناشر صغير قد قبل مشروعي لتأليف كتاب عنوانه "مسابح نهرية".

أريته نموذجي: ألبوم جميل جداً عن مونتِ كارلو أُنجز أواخر الثلاثينيات على يد مصوّر يدعى و. فينمان. وسيكون كتابي في الحجم نفسه. وترقيم الصفحات ذاته. والصور عينها بالأسود والأبيض. ومعظمها بعكس الضوء. بدلاً من ظل أشجار النخيل التي تبرز بوضوح على خليج مونتِ كارلو أو الهياكل الداكنة والبرّاقة للسيارات الشديدة التباين ليلاً مع لمعان مبنى الرياضة الشتوية[2]، سوف تُرى شرفات الغطس والجسور العائمة لمسابح الضاحية هذه. غير أن الضوء سيبقى هو ذاته. لم يفهم الناشر مشروعي جيداً.

– لأنك تظن أن لافارين ومونتِ كارلو هما الشيء نفسه؟ قال لي.

1 Beach de la Varenne

2 Sporting d'Hiver

Twitter: @ketab_n

لكنه انتهى بالتوقيع على العقد. ذلك أن الشبيبة موضع ثقة على الدوام.

ذلك الصباح لم يكن في مسبح بيتش دو لافارين كثير من المستحمّين. حتى لقد ظننت أنها كانت الوحيدة التي تأخذ حمّاماً شمسياً. وكان ثمة صبية ينزلقون على طول حلبة الانزلاق عند حافة المسبح، وكلّما سقطوا في الماء المائل إلى الزرقة تسمع صرخاتهم وضحكاتهم.

كنت منبهراً بجمالها وبحركاتها الفاترة وهي تشعل سيجارة أو تضع قربها كأس عصير البرتقال التي ارتشفت محتواها بواسطة قشّة. ثم إنها تستلقي برشاقة على فرشة المسبح ذات الخطوط الزرقاء والبيضاء، وعيناها مخفيتان وراء نظارتين شمسيتَين، ما ذكّرني بتفكير ناشري. حقاً ليس بين مونتِ كارلو ولافارين كثيرٌ من النقاط المشتركة لكنني رأيت إحداها هذا الصباح – هناك: هذه الفتاة، التي كان من الممكن تخيّلها في نفس الوضعية المتكاسلة في مونتِ كارلو بيتش، والتي استطاع و. فنمان أن يوحي بجوّها في صورة بالأسود والأبيض. لا، ما كان له أن يشوّه المنظر بل، على العكس، كان ليضيف إليه سحراً.

ذهبت يساراً ويميناً باحثاً عن أفضل زاوية للرؤية وآلة التصوير معلّقة في عنقي.

Twitter: @ketab_n

لاحظت مناورتي.

– هل أنت مصوّر؟

– نعم.

نزعت نظارتيها الشمسيتَين وتأمّلتني بعينيها الزرقاوين. كان الأولاد قد غادروا حوض السباحة، ولم يبقَ في المكان أحد غيرنا.

– ألا تشعر بحرارة الجوّ المرتفعة؟

– لا. لماذا؟

كنت لا أزال منتعلاً حذائي، وهو أمر ممنوع في هذا النوع من مؤسّسات الاستحمام، وأرتدي صدرية صوفية عالية القبّة.

– سئمت من الشمس، قالت.

تبعتها من الجانب الآخر لحوض السباحة هنالك حيث يقوم جدار كبير من اللبلاب ملقياً ظلّه وبرودته. جلسنا على كراسي من خشبٍ أبيض، جنباً إلى جنب. كانت ملتفّة بمئزر أسفنجي أبيض. استدارت نحوي:

– لكن ما الذي تريد أن تصوّره هنا؟

– المنظر.

وبحركة عريضة من ذراعي عيّنت لها حوض السباحة، وشرفة الغطس، والمِزلقة، وحجرات الاستحمام، وبعيداً المطعم

Twitter: @ketab_n

القائم في الهواء الطلق، والممشى المظلَّل المحفوف بالأعمدة البرتقالية، والسماء الزرقاء، وجدار اللبلاب الأخضر الداكن خلفنا...

– إني لأتساءل إن كان عليّ أن ألتقط صوراً ملوّنة... ما يُشعر على نحو أفضل بالجوّ البهيج الذي يكتنف بيتش دولافارين...

– أتجد هنا جواً بهيجاً؟

– نعم.

تأملتني بابتسامة هازئة.

– عادةً، أي نوع من الصور تلتقط؟

– أعمل لتأليف ألبوم سَيُسمّى "مسابح نهرية".

– مسابح نهرية؟

قطبت حاجبَيها. كنت على استعداد لإعطائها تفسيرات من شأنها أن تحيّر ناشري: المقارنة مع مونتِ كارلو... لكن لا حاجة إلى خلط الأشياء.

– أسعى لإيجاد مؤسّسات الاستحمام التي لا تزال قائمة في المنطقة الباريسية.

– هل وجدت الكثير منها؟

مدّت نحوي علبةِ سجائر ذهبية تتعارض مع بساطة مظهرها وسجيّتها. ولفرط دهشتي أشعلت هي سيجارتي.

Twitter: @ketab_n

– صوّرت جميع المسابح في منطقة الواز... ليل – آدم[1]، بومون، بوتري – بلاج[2]... ثم المسابح ومحطات الحمّامات على ضفة نهر السين: فيلين، أليزابتفيل[3]...

في الظاهر، بدت متحيّرة بشأن محطات الحمّامات هذه القريبة جداً، والتي لم تكن تشكّ في وجودها. ألقت عليّ نظرة نافذة بعينيها الزرقاوين.

– لكن في النهاية فإن المكان الذي أفضله هو هنا... قلت لها. هذا هو الجوّ الذي أبحث عنه على وجه الدقة. أعتقد أنني سألتقط كثيراً من الصور في لافارين وضواحيها...

لم ترفع بصرها عني، كما لو أنها تريد أن تتحقّق من أنني لا أمزح.

– أتعتقد حقاً أن لافارين محطة حمّامات؟

– قليلاً... وأنت؟

مجدداً، استغرقت في الضحك، ضحكاً خفيفاً جداً.

– وما الذي تريد أن تصوّره في لافارين؟

– البيتش... ضفاف المارن... الجسور العائمة...

1 L'Oise, L'Isle – Adam

2 Beaumont, Butry – Plage

3 Villennes, Elisabethville

Twitter: @ketab_n

– أنت مقيم في باريس؟

– نعم، لكنني استأجرت غرفة في فندق، يجب أن أبقى هنا نحو خمسة عشر يوماً على الأقل لكي أصنع صوراً جيدة...

استطلعتْ الوقت على ساعة يدها، وهي ساعة رجل ذات سوار ضخم يبرز نعومة معصمها.

– يجب أن أذهب من أجل الغداء، قالت لي. لقد تأخّرت.

كانت قد نسيت، على الأرض، علبة السجائر الذهبية. انحنيت لالتقاطها وإعطائها إيّاها.

– آه نعم... يجب ألاّ أنسى هذه... إنها هدية من زوجي...

قالت ذلك من دون أي اقتناع، ثم ذهبت لتغيير ملابسها في إحدى حجرات الاستحمام، على الجانب الآخر من الحوض، ولدى عودتها كانت ترتدي مئزراً مطبّعاً بالزهور، وتتوشّح حقيبة مسبح كبيرة ذات حمّالات.

– جميل مئزرك، قلت لها، أودّ جيداً أن ألتقط لك صورة بهذا المئزر. هنا، في البيتش، أو على أحد الجسور العائمة في المارن. هذا يتلاءم جيداً مع المنظر...

– أترى ذلك؟ إنه تاهيتي، باريو[1]...

---

١ Paréo: مئزر ترتديه النساء في تاهيتي وبولينزيا وكذلك الرجال مع اختلاف بسيط.

Twitter: @ketab_n

نعم، تاهيتي. كان فنمان قد أضاف في ألبومه عن مونتِ كارلو عدة صور لمسابح مهجورة في سان - تروبيه[1] في الثلاثينيات. وكانت بعض النسوة اللواتي يرتدين الباريو مستلقيات على الرمال بين قضبان الخيزران.

- هذا تاهيتي على الأرجح، لكن له سحره هنا، على ضفة المارن...

- إذاً، تريد أن أكون نموذجك؟

- لشدّ ما أودّ ذلك.

ابتسمت لي. خرجنا من البيتش دو لافارين وعلى الدرب المحاذي للمارن مشينا في وسط الطريق. ما من سيارة، ولا أحد. كان كل شيء صامتاً وهادئاً تحت الشمس، وكل الألوان ناعمة: زرقة السماء، الخضرة الشاحبة لأشجار الحَور والصفصاف؛ وكانت مياه المارن، الثقيلة والراكدة عادةً، خفيفةً في ذلك اليوم، تنعكس على ضفحتها السماء والأشجار.

خلّفنا وراءنا جسر شنفيير وما زلنا نسير وسط الطريق المحفوفة بأشجار الدلب والتي تدعى: برومناد ديزنغليه.

هنالك كان زورق مستطيل بمجذاف واحد ينزلق على صفحة المارن، زورق ذو لون برتقالي مائل إلى الوردي. أخذت بيدي

1 Saint - Tropez

Twitter: @ketab_n

وقادتني إلى الرصيف، من جهة المياه لكي نراه يمرّ.

دلّتني على السياج المشبك لإحدى الفيلات.

– أسكن هنا... مع زوجي...

كانت لديّ مع ذلك الشجاعة لأسألها إن كان بوسعنا أن نلتقي مجدداً.

– أتواجد في المسبح كل يوم بين الساعة الحادية عشرة والواحدة من بعد الظهر، قالت لي.

Twitter: @ketab_n

كان مسبح بيتش دو لافارين مقفراً كالبارحة. وكانت هي تأخذ حماماً شمسياً أمام الحجرات البيضاء، وكنت أنا دائب البحث عن الزاوية التي سأصوّر منها هذه المنشأة. أردت أن أجمع في الصورة المغطس، والحجرات، ورصيف المطعم ذا الممشى المظلل والزوارق الضيقة في المارن. غير أن هذه كانت تفصلها الطريق عن المسبح.

– المؤسف حقاً أنهم لم يبنوا المسبح على ضفة المارن مباشرةً، قلت.

غير أنها لم تسمعني. ربما كانت نائمة تحت قبّعتها المصنوعة من القش ونظارتيها الشمسيّتين. جلست إلى جوارها ووضعت يدي على كتفها:

– هل أنت نائمة؟

– لا.

نزعت نظارتيها، وحدّقت فيّ بعينيها الزرقاوين، وابتسمت لي.

– إذاً، هل التقطت صوراً للبيتش؟

Twitter: @ketab_n

– ليس بعد.

– أنت تعمل ببطء...

أمسكت كأس عصير البرتقال بكلتا يديها، وبين شفتيها قشة. ثم ناولتني الكأس، فشربت بدوري.

– أدعوك لتناول طعام الغداء في المنزل، قالت لي. إن كان لا يزعجك التعرّف إلى زوجي وحماتي.

– هذه دعوة لطيفة جداً.

– ربما تجد في ذلك مصدر إلهام لصورك...

– لكن هل تقيمين في لافارين طوال السنة؟

– نعم. طوال السنة. مع زوجي وحماتي.

بدت على نحوٍ مفاجئ متأمّلة ومذعنة.

– زوجك يعمل في المنطقة؟

– لا. زوجي لا يفعل شيئاً.

– وحماتك؟

– حماتي؟ تملك خيول سباق في فنسين[1] وأنغيان[2]... هل أنت مهتمّ بالخيول؟

– لا أعرف عنها الكثير.

---

١ Vincennes: منطقة قرب باريس فيها ميدان لسباق الخيل.

٢ Enghien: مدينة ناطقة بالفرنسية في بلجيكا.

Twitter: @ketab_n

– ولا أنا. لكن إن ذلك يهمّك بخصوص صورك، لا شك في أن حماتي ستكون سعيدة باصطحابك إلى ميادين السباق.

خيول سباق. فكرت في و. فنمان الذي صوّر، لألبومه، انطلاق سباق الجائزة الكبرى في موناكو، والسيارات السريعة المارّة في محاذاة المرفأ. إذاً لقد وجدت المعادل لتلك التظاهرة الرياضية، هنا، على ضفة المارن: المناخ الذي كنت أبحث عنه في تلك المسابح النهرية. مَن كان بوسعه أن يقدّم اقتراحاً أفضل من خيول السباق الخفيفة وعرباتها ذات العجلتين والمقعد الواحد؟

أخذت بذراعي في الطريق الخالية على حافة الماء، لكن عندما صرنا على مقربة من السياج المشبك للمنزل ابتعدت عني.

– ألا يزعجك حقاً أن تأتي لتناول طعام الغداء؟ سألتني.

– بالعكس.

– إن وجدت أن ذلك يزعجك يمكنك دائماً أن تقول إنك مشغول.

رمقتني بنظرة حانية وغريبة أثّرت فيّ. وشعرت بأننا لن نفترق بعد الآن.

– سأوضح لهما أنك مصوّر وأنك تريد أن تؤلّف ألبوماً عن لافارين.

Twitter: @ketab_n

دفعتْ باب السياج، اجتزنا مرجة خضراء تنتصب عند تخومها فيلا ضخمة، على النمط الإنغلو - نورماندي، مع فراغات زخرفية من خشب وآجرّ. ثم أفضينا إلى قاعة الجلوس التي كانت جدرانها ملبّسة بخشب داكن والكراسي والأرائك بقماش شطرنجي.

دخلت من أحد الأبواب امرأة ترتدي ثوب سباحة، وأقبلت نحونا تمشي الهوينا. سيدة في الستينيات، ممشوقة، وشعرها الرمادي مسرّح بطريقة تعطيها مظهر لبؤة.

- حماتي، قالت سيلفيا... السيدة فيلكور...

- لا تدعوني بحماتك، هذا يكدّرني...

كان صوتها أبحّ وتتكلّم بلُكنة سكان الضواحي...

- إذاً، أنت مصوّر؟

- نعم.

جلست هي على الأريكة، وسيلفيا وأنا على كرسيّين. وكانت صينية المشروب الفاتح للشهية تنتظرنا على طاولة منخفضة وضعت في الوسط أمامنا.

تقدَّم إلينا رجل ذو مشية متثاقلة وقامة ضئيلة كفارس سباق. بدا بسترته البيضاء وبنطلونه الكحلي أشبه بعضو في طاقم يخت أو موظف في نادٍ للرياضة المائية.

Twitter: @ketab_n

– يمكنك أن تتناول بنفسك المشروب الفاتح للشهية، قالت السيدة فيلكور.

اخترت قليلاً من مشروب البورتو[1]، واختارت سيلفيا والسيدة فيلكور الويسكي. وانسحب الرجل جارّاً قدميه.

– يبدو أنك تعتزم تأليف ألبوم صور عن لافارين؟ سألتني السيدة فيلكور.

نعم، عن لافارين وعن جميع المسابح النهرية الأخرى في ضواحي باريس.

– لافارين تغيّرت كثيراً... أصبحت ميتة تماماً... قالت لي سيلفيا إنك قد تحتاج إلى معلومات عن لافارين من أجل ألبومك...

التفتُّ نحو سيلفيا، كانت تنظر إليّ من طرف عينها. إذاً، كانت هذه هي الحجة التي اختارتها لإدخالي إلى هنا.

– عرفت لافارين في المرحلة التي كنت فيها متزوجة حديثاً... وكنا قد سكنّا هذا المنزل أنا وزوجي...

سكبت لنفسها كأساً ثانية من الويسكي. كانت تضع خاتماً من الزمرّد في إصبعها الوسطى.

– آنذاك كان كثير من فناني السينما يتردّدون على لافارين...

---

١ Porto: خمرة مشهورة في البرتغال.

Twitter: @ketab_n

رينيه داري، جيمي غايّار، بريجان... وكان آل فراتلّيني يسكنون في بريه[1]... زوجي كان يعرفهم كلهم. كان يذهب للمراهنة على سباق الخيل في ترمبلاي[2]، مع جول بيرّي.

كانت تبدو مسرورةً لذكر هذه الأسماء واستدعاء هذه الذكريات أمامي. ما الذي تمكّنت سيلفيا من قوله لها؟ أنني أريد أن أكتب تاريخ لافارين؟

– بالنسبة إليهم كانت الإقامة هنا عملية... نظراً إلى قرب استديوهات جوانفيل[3]...

شعرت بأن مَعينها لن ينضب في الحديث عن هذا الموضوع. كان وجهها يحمرّ وعيناها تبرقان. أمِن تأثير الكأس الثانية التي شربتها على وجه السرعة، أم لتدفّق الذكريات؟

– أعرف قصة غريبة جداً لعلّها ستثير اهتمامك...

ابتسمت لي وغدا وجهها أسيلاً والتمعت عيناها وابتسامتها بوميض الشباب. لا بدّ أنها كانت في ما مضى امرأةً باهرة الجمال.

– هذه القصة تتعلق بفنان سينمائي آخر كان زوجي يعرفه

1 Perreux

2 Tremblay

3 Joinville

Twitter: @ketab_n

جيداً... إيموس... ريمون إيموس[1]... كان يسكن في مكان قريب جداً من هنا، في شنفيير... يقال إنه قُتل أثناء تحرير باريس، على متراس، برصاصة طائشة.

كانت سيلفيا تصغي مندهشة، وبدا أنها لم يسبق لها أبداً أن سمعت حماتها تتكلم على هذا النحو، ولربما لم تبدُ على هذا القدر من الراحة والألفة مع غريب.

– في الواقع، لم يحدث شيء من هذا أبداً... هذه قصة يكتنفها الغموض وسأشرح لك...

هزّت كتفيها.

– هل تعتقد، أنت، بالرصاصات الطائشة؟

أقبل رجل أسمر في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، يرتدي بنطلوناً كحلياً وقميصاً أبيض، وجلس على الأريكة إلى جانب السيدة فيلكور، فيما كانت تستعد، من دون شك، لأن تكشف لي سرّ موت إيموس.

– أرى أنكما مستغرقان في محادثة مستفيضة... أنا أزعجكما...

مال نحوي ومدّ لي ذراعه.

– فريدريك فيلكور... سُررت بك... أنا زوج سيلفيا.

1 Raymond Aimos

Twitter: @ketab_n

فتحت سيلفيا فمها لتقديمي. غير أنني لم أترك لها الوقت لكي تنطق باسمي وقلت ببساطة:

– سررتُ بك أنا أيضاً...

حدّق فيّ. كان كل ما في مظهره – نوع من الرفاهية، ابتسامة غريرة، صوت رنّان وآمِر – يدلّ على أنه كان واثقاً من سحر سمرته وملامحه المتناسقة. لكن سرعان ما تبدّد هذا السحر بسبب الحركات عديمة اللياقة والمنسجمة تماماً مع السلسلة التي تطوّق معصمه.

– أمي تروي لك كل قصصها القديمة... عندما تنطلق فإنها لا تتوقف...

– ما أرويه يهمّ هذا الشاب، قالت السيدة فيلكور. إنه يؤلّف كتاباً عن لافارين...

– إذاً يمكنك أن تثق بأمي... إنها بئر معرفة عن كل ما يتعلق بلافارين...

طأطأت سيلفيا رأسها، منزعجة. وضعت يدها على ركبتها وراحت تحكّها بسبّابتها متأمّلة.

– آمل أن ننتقل قريباً إلى المأدبة، قال فريدريك فيلكور، أشعر بجوع شديد...

ألقت عليّ سيلفيا نظرة قلقة، كما لو أنها تعتذر عن إدخالي

Twitter: @ketab_n

هذا البيت وفرضها عليّ صحبة هذه المرأة وابنها.

– سوف نتغدّى في الخارج، قالت السيدة فيلكور.

– فكرتك هذه ممتازة، يا أمي...

هذا التوقير في مخاطبتها وهذه اللهجة المتصنّعة فاجآني. هما أيضاً كانا متناغمين مع السلسلة الضخمة حول معصمه.

كان الرجل ذو السِترة البيضاء ينتظر في فُرجة باب الصالون.

– الطعام جاهز.

– قادمون، يا جوليان، قال فيلكور بصوت رنّان.

– هل نصبت الظُلّة؟ سألت السيدة فيلكور.

– نعم، يا سيدتي.

اجتزنا المرجة الخضراء الفسيحة. سرنا، سيلفيا وأنا، متأخرين قليلاً. ألقت عليّ نظرة استفهامية، كأنما تخشى أن أنسحب فجأة.

– أنا مسرور جداً لدعوتك إياي، قلت لها. مسرور جداً.

غير أنها لم تبدُ مطمئنة تماماً. ربما كانت تخشى ردات فعل زوجها، الذي كانت تلاحظه باحتكار مبهم.

– أوضحت لي سيلفيا أنك مصوّر، قال فيلكور وهو يفتح باب السياج تاركاً الممرّ لأمّه. سوف أعطيك عملاً، إذا رغبت في ذلك...

Twitter: @ketab_n

أنعم عليَّ بابتسامة عريضة:

– نحن بصدد القيام بعملية تجارية مهمة... وسنكون بحاجة إلى منشور وصور إعلانية...

تكلم بلهجة مَن يؤدي خدمة لتابع له. أما أنا فلم أرفع عينيّ عن السلسلة التي تتدلّى من معصمه. إذا كانت "العملية المهمة" التي أُلمح إليها على شاكلة هذه السلسلة ذات الحلقات العريضة والكبيرة، فأي شيء يمكن أن تعني سوى تجارة غير مشروعة بالسيارات الأميركية؟

– هو لا يحتاج إلى أن تجد له عملاً، قالت سيلفيا بخشونة.

قُبالة المنزل تماماً، في الجانب الآخر من الطريق، على حافة الماء، نصب فيلكور معلماً أبيض مكتوباً عليه: "فيلا فريدريك، الجسر العائم ١٤، برومناد ديزنغليه".

التفتت أمّه نحوي:

– سترى مشهداً جميلاً للمارن... أنا على ثقة من أنك ستلتقط صوراً...

هبطنا بعض الدرجات المحفورة في صخرة بدت لي اصطناعية بسبب لونها الوردي. ثم أفضينا إلى جسر عائم عريض جداً مغطى بظلّة من نسيج ذي تخاطيط خضراء وبيضاء نُصبت عليه مائدة لأربعة أشخاص.

Twitter: @ketab_n

– اجلس هنا، قالت لي السيدة فيلكور.

ثم دلّتني على المكان من حيث يمكنني أن أرى المارن والضفة الأخرى. جلست هي عن يساري، وجلست سيلفيا وزوجها إلى جانبي الطاولة، سيلفيا من جهتي وفريدريك فيلكور من جهة أمّه.

قام الرجل ذو السترة البيضاء برحلتين، من الفيلا إلى الجسر العائم، لكي يجلب لنا أطباقاً من الخضرة النيئة وسمكة كبيرة باردة. وكان يتصبّب عرقاً بسبب الحرّ. وفي أثناء كل من رحلتيه رشقه فيلكور بقوله:

– لا تعرّض نفسك للدهس، يا جوليان، عندما تجتاز جادة لو برومناد ديزنغليه.

غير أن الآخر لم يعر أدنى اهتمام لهذه النصيحة وابتعد مجرجراً قدميه.

نظرتُ حواليّ. كانت الظلة تحمينا من الشمس التي تنعكس أشعتها على مياه المارن الخضراء والراكدة وتعطيها مظهراً شفّافاً، كما في ذلك اليوم لدى الخروج من البيتش. في الجهة المقابلة يبدو تل شنفيير، الذي توجد في سفحه منازل ضخمة، مشيّدة بقطع الصخر الصواني، تخترق الخُضرة. وعلى حوافّ المياه تقوم فيلات حديثة وأنيقة. تخيّلت أن سكانها هم سماسرة في أسواق الخضر متقاعدون.

Twitter: @ketab_n

كان الجسر العائم لفيلا فريدريك، الذي كنا نتغدّى عليه، محميّين من أشعة الشمس، هو الجسر الأكبر والأفخم في الجِوار بلا منازع. حتى جسر مطعم لو بافيون بلو[1]، على بعد حوالي عشرين متراً إلى اليمين، كان يبدو متواضعاً جداً إلى جانبه. نعم، يقدّم الجسر العائم لفيلا فريدريك تعارضاً لافتاً للنظر مع منظر المارن هذا، بصفصافه، ومياهه الراكدة، وحوافّه المخصصة للصيادين بالصنارة.

– هل أحببت المنظر؟ سألتني السيدة فيلكور.

– كثيراً.

مفارقة مدهشة: كان يبدو لي أننا نتغدّى في بقعة محصورة من الكوت دازور حُوِّلت إلى ضاحية، مثل تلك القصور العائدة للقرون الوسطى التي عمل بعض أثرياء كاليفورنيا على نقلها حجراً حجراً إلى بلادهم. ذكّرتني الصخرة التي تسبق الجسر العائم بالجون الصخري قرب كاسّيس[2]. والظُلّة فوقنا ذات فخامة موناكية وكانت جديرة بالظهور في إحدى صور و. فنمان. كما

1 Le Pavillon Bleu

2 Cassis

Twitter: @ketab_n

أنها تذكّر بملهى الليدو[1] في مدينة البندقية[2]. واشتدّ انطباعي هذا عندما لمحت قارباً بمحرّك آليّ مربوطاً إلى الجسر العائم.

– أهو لكِ؟ سألتُ السيدة فيلكور.

– لا... لا... لابني... هذا الغبي يتسلّى بإجرائه على المارن في حين أن ذلك ممنوع.

– لا تكوني قاسية، يا أمّي.

– على كل حال، قالت سيلفيا، لا يستطيع القارب أن يتقدّم بسبب المياه المثقلة بالوحل...

– أنت واهمة، يا سيلفيا، قال فيلكور.

– هذا مستنقع حقيقي... إذا أردت أن تمارس التزحلق المائي عليه سوف تعلق الزلاّجتان في الوحل كما في الزئبق وتبقى أنت منقطعاً وسط المارن...

نطقت تلك العبارة بصوت قاطع وهي تحدّق في فيلكور.

– تتلفظين بحماقات، يا سيلفيا... يمكن إجراء القارب وممارسة التزحلق المائي على أكمل وجه في المارن...

كان ساخطاً كل السخط. والظاهر أنه كان يعلّق أهمية كبيرة على هذا القارب. التفت نحوي:

---

١ Le Lido: ملهى ليلي شهير.

٢ Venise: المدينة الإيطالية المشهورة المغمورة شوارعها بالمياه.

Twitter: @ketab_n

– تفضّل التردّد على البيتش، مسبحها البائس الآخذ في الانهيار...

– لكن لا قطعاً، قلت له. البيتش دو لافارين لا ينهار وأجد فيه كثيراً من السحر.

– حقاً؟

حدّق فينا، الواحد تلو الآخر، سيلفيا وأنا، كما لو أنه يريد أن يكتشف أننا متواطئان.

– نعم، فكرة هذا القارب حمقاء تماماً، قالت السيدة فيلكور. يجب أن تتخلّص منه...

لم يجب فيلكور. أشعل سيجارة، وحَرِد.

– إذاً، ماذا وجدت من مسابح نهرية في الناحية؟ سألتني السيدة فيلكور.

جعلها انعكاس أشعة الشمس على سطح الماء تطرف بعينيها فوضعت نظارتين سوداوين ضخمتين.

– أترى أنك تقوم بعمل جيّد في ما تسعى إلى تصويره؟ مسابح نهرية؟

بدت بوجهها الأشبه بوجه نمرة، ونظارتيها السوداوين، والويسكي الذي شربته أثناء الغداء، وكأنها سيدة أميركية تمضي

Twitter: @ketab_n

فصل الصيف في إيدن روك[1]. لكنْ ثمة فرق بينها وبين كل هذه المُلحقات في الكوت دازور التي تحيط بنا: الصخرة، القارب، الجسر العائم المغطّى بظُلّة. كانت السيدة فيلكور على توافق مع منظر ضفاف المارن، وتشبهه. ربما بسبب صوتها الأجش؟

– نعم، أبحث عن المسابح النهرية، قلت.

– في صغري كنت أذهب إلى المسبح هنالك، قرب شيل[2]... مسبح غورناي – سور – مارن... كان يُسمّى "دوفيل الصغير"... وكان هناك رمل وخيام من نسيج...

كانت بنت البلد إذاً؟

– لكنّ هذا ما عاد موجوداً، يا أمّي، قال فيلكور هازّاً كتفيه.

– هل ذهبت لتراه؟ سألتني السيدة فيلكور من دون أن تهتم بابنها.

– ليس بعد.

– أنا على يقين من أن ذلك ما زال موجوداً، قالت السيدة فيلكور.

– أنا أيضاً، قالت سيلفيا بجسارة متحمّلةً نظرة زوجها.

---

١ Eden Roc: فندق فخم.

2 Chelles

Twitter: @ketab_n

– كان يوجد أيضاً مسبح برّيترو في جوان – فيل[1].... قالت السيدة فيلكور.

فكرتْ واستعدّتْ للعدّ على أصابعها.

– ودوشيه[2]، ومطعم سان – موريس – بلاج... في سان – موريس أيضاً، والجُرْف الرملي في ليل – روج... وليل – أو – كوربو[3]...

كانت تضغط تدريجاً بيدها اليسرى كل إصبع في يدها اليمنى.

– الفندق – المطعم في مسبح ميزون – ألفور[4]... مسبح شامبيني، رصيف غالييني... بالم – بيتش، ليدو شنفيير[5]... أعرف كل هذا عن ظهر قلب... ولِدتُ في المنطقة...

نزعت للحظة نظارتيها السوداوين ورمقتني بلطف.

– ها أنت ترى، أمامك عمل كثير... هنا، ريفييرا حقيقية[6].

– لكن هذه الأماكن كلها ما عادت موجودة، كرّر فيلكور بشراسة مَن لا يُصغَى إليه.

1 Berretrot à Joinville

2 Duchet, Saint – Maurice

٣ L'Ile Rouge: الجزيرة الحمراء؛ L'Ile aux Corbeaux: جزيرة الغربان.

4 Maisons – Alfort, Champigny, quai Gallieni

5 Palm – Beach, Lido de Chennevières

٦ Véritable Riviera: المقصود ساحل ذو مناخ لطيف يجذب السياح.

Twitter: @ketab_n

– وماذا بعد؟ لنا الحق في أن نحلم، أم لا؟ فاجأتني هذه الطريقة الفظة في الردّ على ابنها.

– نعم، لنا الحق في أن نحلم، كرّرت سيلفيا بصوت ثاقب غير أن إمالته الفاترة قليلاً تنسجم جيداً مع ضفاف المارن هذه وجميع المسابح التي ذكرتها السيدة فيلكور.

– يمكنكِ أن تري هذه الماسة اعتباراً من الغد، يا أمي... قال فيلكور. إنها استثنائية حقاً... سيكون من الحماقة إهمالها... الماسة تدعى صليب الجنوب. كان يضع مرفقيه على الطاولة ساعياً إلى أن يكون مقنعاً أكثر فأكثر. غير أن أمّه التي كانت تخفي عينيها وراء نظارتيها بقيت غير متأثرة وتعطي الانطباع بأنها تركّز نظرها على نقطة ما، هنالك، على تلة شنفيير الخضراء الداكنة.

كانت سيلفيا ترمقني من طرف عينها.

– سوف أريك، قال فيلكور، لها نسب عريق... إنها قطعة فريدة...

أكان هذا الصبي بسلسلة ساعته وقاربه العالق في مياه المارن خبير ألماس أم دلاّلاً على الأحجار الكريمة؟ لقد راقبته جيداً ولم يسعني الاعتقاد بكفاءاته المهنية.

– جاء البائع لرؤيتي هنا، منذ أسبوع تقريباً، قال فيلكور. إذا لم نقرّر في أسرع وقت سوف تخرج الصفقة من أيدينا.

Twitter: @ketab_n

– ما الذي تريد أن أفعله بالماسة؟ قالت السيدة فيلكور. ما عدت في السنّ التي يليق بي فيها أن أحمل الألماس.

انفجر فيلكور ضاحكاً. وكان ينظر إلينا، سيلفيا وأنا، كأنه يريد أن يُشهدنا على ذلك.

– ولكن في النهاية، يا أمي، لا يتعلّق الأمر بحمل ألماسة... يكفي ببساطة شراؤها بسعر مناسب جداً ومن ثم نبيعها بسعر مضاعف...

هذه المرة استدارت السيدة فيلكور نحو ابنها ونزعت ببطء نظارتيها السوداوين.

– أنت تتفوّه بحماقات... الأثاث والمجوهرات يُعاد بيعها بخسارة دائماً... يا عزيزي المسكين، أخشى أنك لا تتمتع بكفاءة رجل أعمال...

قالت ذلك بلهجة هازئة وعطوفة في آن.

– أليس من الأفضل، يا سيلفيا، أن لا يهتم فريديرك بالأحجار الكريمة؟ هذه مهنة صعبة، تعلم، يا عزيزي...

توتّر فيلكور، وكان يجد صعوبة في الاحتفاظ بهدوئه، حتى إنه أدار رأسه. وأنا ما عدت أنظر إلى السلسلة حول معصمه بل إلى هذا القارب المتلألئ، الذي جاء ليضيع في مياه المارن الميتة والثقيلة نتيجة خطأ سائقه.

Twitter: @ketab_n

قلت في نفسي إن أي مشروع يريد الدخول فيه، وكل حركة من حركاته، وأقل مبادرة من جهته، لا بد أن تنتهي، حتماً، بورطة مماثلة، وكان هو زوج سيلفيا.

سمعتُ وقع خطوات خلفي، وإذا برجل في سنّ فيلكور يظهر على الجسر العائم، معتدل القامة، يرتدي بذلة من نسيج رمادي، وحذاء من جلد الأيّل، بعينين صغيرتين غائرتين وجبهة حملٍ عنيد.

– أمي، هذا رينيه جوردان...

أعلن فيلكور لأمّه عن وصول القادم الجديد باحترام ممزوج بالمغالاة في إظهار العاطفة، كما لو أن المدعوّ رينيه جوردان، ذا الحذاء المصنوع من جلد الأيّل، ورأس الحمل، والعينين الفارغتين، شخصية مهمة.

– من؟ سألت السيدة فيلكور من دون أن تحرّك رأسها شعرة.

– رينيه جوردان، يا أمي...

مدّ هذا ذراعه نحو السيدة فيلكور.

– صباح الخير سيدتي...

غير أنها لم تصافحه. وبنظارتيها السوداوين أولته لامبالاة عمياء. عندئذٍ مدّ ذراعه نحو سيلفيا التي ضغطت يده من دون اقتناع وبوجه عبوس. ثم حيّاني بحركة من رأسه.

Twitter: @ketab_n

– رينيه جوردان... قال لي فيلكور، صديق...

دلّه على الكرسي الفارغ أمامي، جلس عليه الآخر.

– تصوّر، يا رينيه، أنني كنت أتحدث عن الماسة. أليست قطعة رائعة؟

– رائعة، قال الآخر مفترّاً عن ابتسامة أكثر خواءً من نظرته.

مال فيلكور نحو أمّه.

– الرجل الذي يريد أن يبيع هذه الماسة هو صديق لرينيه جوردان. قال ذلك كما لو أن الرجل كان مرجعاً مرموقاً، وشخصية من صفوة المجتمع.

– أوضحت لابني أنني ما عدتُ في السنّ التي يليق بي فيها أن أحمل الألماس.

– يا للخسارة، يا سيدتي. أنا على يقين من أن هذه الماسة سوف تثير إعجابك... إنها قطعة تاريخية... لدينا شجرة نسب كاملة بشأنها... تدعى صليب الجنوب...

– ثقي بي، يا أمي. إذا أعطيتني المال أعدك بأنني سأردّه إليك مضاعفاً عندما أبيع الماسة ثانية.

– يا فريديريكي المسكين... من أين تأتي هذه الماسة؟ من عملية سطو؟

أطلق الرجل ذو رأس الحمل ضحكةً حادّة.

Twitter: @ketab_n

– لكن لا، يا سيدتي... من ميراث... يسعى صديقي لبيعه لأنه بحاجة إلى سيولة مالية... إنه يدير شركة عقارية في نيس... سأعطيك كل المستندات المرجعية...

– يمكننا أن نُريكِ الحجر الكريم، يا أمي، قال فيلكور. يجب أن تريه بأُمّ عينيك قبل أن تتّخذي قرارك.

– موافقة، قالت السيدة فيلكور بصوتٍ مُتعَب. ستريني صليب الجنوب هذا.

– غداً، يا أمي؟

– غداً.

هزّت رأسها مفكّرة.

– هل تأتي، يا رينيه؟ قال فيلكور. يجب أن نذهب لنرى كيف تجري الأشغال...

نهض ووقف منتصباً أمامي.

– لعلّ هذا يهمّك... أنا بصدد إعادة تأهيل كاملة لجزيرة صغيرة من جُزر المارن، بعد شنفيير... الأرض تملكها أمي... نريد أن نُنشئ فيها حوض سباحة وحانة ليلية... غير أن سيلفيا ستحدثك عن ذلك، إذ ليس لديها ما تخفيه عنك...

كان عدوانياً، فجأةً. لم أردّ. فكرة أصابعه المفتولة على جسم سيلفيا جعلتني أشمئزّ بما يكفي لئلا أتعرّض للاحتكاك بها، إذا

Twitter: @ketab_n

ما وصلنا إلى التضارب بالأيدي.

نزل سلّم الجسر العائم، يتبعه الرجل ذو الحذاء المصنوع من جلد الأيّل ورأس الحمل ثم جلسا جنباً إلى جنب في القارب الذي أدار فيلكور محرّكه بحركات عصبية. وسرعان ما اختفى القارب غير أنّ المياه كانت ثقيلة جداً بحيث لم يترك حزماً من الزبد خلفه.

بقيت السيدة فيلكور صامتةً مدةً طويلة ثم التفتت نحو سيلفيا:

– عزيزتي، اذهبي وقولي له أن يُعدّ لنا القهوة...

– حالاً...

نهضت سيلفيا وعندما مَرّت من خلفي وضعت يديها خفيةً على كتفيّ. وتساءلت بدوري عمّا إذا كانت ستعود أم ستتركني وحيداً مع حماتها بقية النهار.

– ربما أمكننا الجلوس تحت الشمس، قالت لي السيدة فيلكور.

انتقلنا إلى مكان على الجسر العائم حيث جلسنا على أريكتين من نسيج أزرق. لم تقل شيئاً، وكانت تحدِّق، من وراء نظارتيها السوداوين في مياه المارن. فيمَ تفكر؟ في الأولاد الذين لا يعطونكم ما تنتظرون منهم من أسباب الرضى؟

– وصورك عن لافارين؟ سألتني كما لو أنها تريد أن تكسر

Twitter: @ketab_n

الصمت على سبيل المجاملة.

– ستكون صوراً بالأسود والأبيض، قلت لها.

– أنت محقّ في أن تجعلها بالأسود والأبيض.

دُهِشتُ بلهجتها القاطعة.

– وإذا استطعت أن تجعلها سوداء كلها سيكون ذلك أفضل. سأشرح لك شيئاً...

ترددت برهة.

– كل ضفاف النيل هذه أماكن كئيبة... طبعاً، مع الشمس تكون خادعة... إلا إذا كنت تعرفها جيداً... قُتِل زوجي في حادث سيارة غير مفهوم على ضفة المارن... وُلِد ابني وتربّى هنا وأصبح داعراً... وأنا أشيخ وحيدةً في هذا المشهد المُكرِب...

حافظت على هدوئها وهي تبوح لي بذلك. حتى إن لهجتها كانت طلقة.

– ألا تبالغين في رؤية الأشياء سوداء؟

– أبداً... أنا على يقين من أنك صبي حسّاس بشأن الأجواء وأنك تفهمني... اجعل صورك أشدّ سواداً ما استطعت.

– سأحاول، قلت لها.

– توجد على الدوام أشياء سوداء وقميئة على ضفاف المارن هذه... أتعلم بأية أموال شُيّدت هذه الفيلات في لافارين؟ بالأموال

Twitter: @ketab_n

التي كسبتها الفتيات بعملهن في البيوت... هنا كان المكان الذي يقضي فيه القوّادون ومدراء الحانات مدة تقاعدهم... أنا أعلم عمّا أتكلم...

سكتت فجأةً، وبدت أنها تفكر في شيء ما.

– ضفاف المارن هذه كانت مقصد أهل السوء على الدوام... خصوصاً في أثناء الحرب... حدّثتك عن هذا المسكين إيموس... كان زوجي يحبه كثيراً... وكان إيموس يسكن في شنفيير... مات على المتاريس، إبّان تحرير باريس...

كانت تنظر أمامها دائماً، ربما تتطلع إلى شنفيير حيث أقام إيموس هذا.

– قيل إنه أصيب برصاصة طائشة... هذا ليس صحيحاً... قُتِل انتقاماً... بسبب بعض الأشخاص الذين كانوا يرتادون شامبيني ولافارين أثناء الحرب... كان يعرفهم، ويعلم أشياء عنهم... وكان يستمع إلى أحاديثهم في فنادق الجوار...

جاءتنا سيلفيا بالقهوة. نهضت السيدة فيلكور، كما لو كانت مُكرهة، ومدّت لي يدها.

– سُررت بمعرفتك...

قبّلت سيلفيا على جبهتها.

– سأنام القيلولة، يا عزيزتي...

Twitter: @ketab_n

رافقتُها حتى الصخرة الحمراء، حيث تبدأ درجات السلّم.

– أشكرك على كل المعلومات التي أعطيتني إياها عن ضفاف المارن، قلت لها.

– إن رغبت في الاطّلاع على تفاصيل أخرى تعال لرؤيتي. لكنني واثقة من أنك أصبحت في الجو الآن... إعمل صوراً سوداء... معتمة.

قالت ذلك مشدّدةً على كل مقطع صوتي من كلمة "معتمة"، بلهجة باريس وضواحيها.

– امرأة غريبة الأطوار، قلت لسيلفيا.

كنا جالسَين على الألواح الخشبية للجسر العائم وقد أسندت رأسها إلى كتفي.

– وأنا أيضاً أترى أنني امرأة غريبة الأطوار؟

خاطبتني بصيغة المفرد رافعةً الكلفة بيننا للمرة الأولى.

لبثنا هناك، نحن الاثنين، على الجسر العائم، نتابع بالنظر زورقاً ينساب وسط المارن، هو نفسه الذي رأيناه من قبل. لم تعد المياه راكدة لكن تتخللها ارتعاشات.

كان التيار هو الذي يحمل الزورق ويجعله خفيفاً ويعطي حركة المجاذيف الطويلة والموزونة اندفاعها، ذلك التيار الذي نسمع هديره تحت الشمس.

Twitter: @ketab_n

اجتاح الظل الخفيف غرفتي تدريجياً من دون أن نلحظ ذلك حتى. نظرتْ إلى ساعة يدها:

– أوشكت أن أتأخر عن العشاء. حماتي وزوجي يجب أن يكونا في انتظاري.

نهضت، قلبت المخدّة وأبعدت الشرشف.

– فقدت قُرطي.

ثم بدأت بارتداء ثيابها أمام مرآة خزانة الحائط. لبست قميصها المخصّر الأخضر، وتنورتها المصنوعة من نسيج أحمر التي شدّت خصرها، ثم جلست على حافة السرير ولبست حذاءها الرياضي.

– قد أعود على الفور إن كانا يلعبان الورق... أو صباح الغد...

أغلقت الباب وراءها بهدوء.

خرجت إلى الشرفة وتابعت بالنظر قامتها الرشيقة، وتنّورتها الحمراء في الأصيل، على طول رصيف لافارين.

انتظرتها طوال النهار، مستلقياً على سرير غرفتي. كانت الشمس ترسم، من خلال مغاليق النوافذ، بقعاً بيضاء على الجدران وعلى جسمها. في الأسفل، أمام الفندق، تحت شجرات الدُلب الثلاث، كان لاعبو الكرات الحديدية يتابعون لعبهم في وقت

Twitter: @ketab_n

متأخر من الليل. كنا نسمع صيحاتهم. وقد علّقوا على الأشجار مصابيح كهربائية كان ضوؤها ينفذ هو أيضاً من خلال المغاليق ويلقي على الجدران، في العتمة، أشعة أشدّ سطوعاً من أشعة الشمس. عيناها الزرقاوان. ثوبها الأحمر. شعرها الأسمر. وفي ما بعد، بعد زمن طويل، كل هذا، كل الألوان الفاقعة، انطفأت، وما عاد بوسعي أن أرى كل ذلك إلا بالأسود والأبيض – كما قالت السيدة فيلكور.

أحياناً، كان يمكنها أن تبقى معي في الغرفة حتى صباح اليوم التالي. كان زوجها قد ذهب في رحلة أعمال مع الرجل ذي الحذاء المصنوع من جلد الأيّل وجبهة الحمل والعينين الفارغتين، ومع الآخر، ذاك الذي كان يريد أن يبيع الماسة. كانت لا تعرفه، لكن اسمه غالباً ما كان يتردد في الأحاديث التي تجري بين جوردان وزوجها: كان يدعى بول.

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة استيقظت مذعوراً. كان أحدهم يدير قبضة باب غرفتي. وكنت لا أقفله بالمفتاح أبداً فلربّما وجدت سيلفيا بعض الوقت لكي تأتي إليّ. دخلتْ. حركت يدي مُتحمّساً قاطع التيار.

– لا... لا تشعل الضوء...

اعتقدت للوهلة الأولى أنها مدّت يدها لتحمي وجهها من ضوء مصباح السرير. غير أنها كانت تريد أن تخفي وجهها عني. كان شعرها مبعثراً وتخترق خدها ندبة تنزف دماً.

– إنه زوجي...

تهاوت على طرف السرير. ولم تكن لديّ محرمة لأمسح قطرات الدم عن خدها.

– تشاجرت مع زوجي.

تمددت إلى جانبي، أصابع فيلكور المفتولة ويده القصيرة والغليظة تضرب وجهها... شعرت برغبة في التقيّؤ عندما خطرت لي هذه الفكرة.

– هذا آخر شجار يقع بيني وبينه... الآن، سوف نذهب.

– نذهب؟

Twitter: @ketab_n

– نعم. أنت وأنا. لديّ سيارة في الأسفل...

– لكن أين نذهب؟

– انظر... أخذت الماسة.

دسّت يدها في صدارها وأرتني الماسة المربوطة بسلسلة رقيقة جداً حول عنقها.

– بهذه لن نواجه مشكلة مالية...

نزعت السلسلة من عنقها ودسّتها في يدي.

– احتفظ بها.

وضعتها على المنضدة. أخافتني هذه الماسة، كما أخافتني الندبة الدامية على خدها.

– إنها لنا الآن، قالت سيلفيا.

– هل تعتقدين حقاً أن علينا أن نأخذها؟

بدت وكأنها لا تسمعني.

– جوليان والرجل الآخر سوف يحاسبان زوجي... لن يفلتاه ما لم يُرجع الماسة...

كانت تتكلم بصوت خفيض كما لو كان أحدهم يتنصّت علينا من وراء الباب.

– ولن يتمكن من إرجاعها أبداً... سوف يعاقبانه أشد العقاب... هذا درس له لمعاشرته رفقة السوء...

Twitter: @ketab_n

أدنت وجهها من وجهي وقالت لي هذه الجملة الأخيرة هامسةً في أذني. نظرت في عينيّ مباشرة.

– وسأصبح أرملة...

في تلك اللحظة هزّتنا نوبة من الضحك المتواصل على نحو عصبي. ثم اقتربت مني أكثر وأطفأت مصباح السرير.

كانت السيارة متوقفة أمام الفندق تحت أشجار الدُلب، حيث كان اللاعبون يتابعون مباريات الكرات الحديدية التي لا تنتهي. غير أنهم لم يكونوا هناك وقد أطفأوا المصابيح الكهربائية المعلقة على الأشجار. أرادت أن تقود السيارة. جلستْ وراء المقود وأنا إلى جانبها. وكانت على المقعد الخلفي حقيبة موضوعة بشكل منحرف.

للمرة الأخيرة، تبعنا رصيف لافارين وأذكر أن السيارة كانت تسير ببطء. لمحت أشجار الصفصاف في الجزيرة الصغيرة، وسط المارن، مع أعشابها الطويلة، وممرها وأرجوحتها، التي كنا نبلغها سباحةً، منذ زمنٍ بعيد، قبل أن تغدو المياه ملوّثة بالسموم. وهنالك، على الضفة الأخرى، الكتلة المظلمة لتل شنفيير. وللمرة الأخيرة، مرّت بنا المقصورات المبنية بالحجر الصواني، والفيلات النورماندية، والشاليهات، والبيوت ذات الطابق الواحد المبنية في بداية القرن بأموال الفتيات...

Twitter: @ketab_n

وحدائقها حيث زرعت أشجار الزيزفون. والعنبر الكبير لدائرة الألعاب الرياضية في المارن. والسياج المشبّك والمنتزه لشاتو ديزيل جوشيم[1].

وقبل أن ننعطف يميناً، للمرة الأخيرة أيضاً، مسبح بيتش دو لافارين، هنا حيث بدأ كل شيء، مع شرفة الغطس، وحجرات الاستحمام، والظلة تحت ضوء القمر، هذا المنظر الذي كان في طفولتنا يبدو خلاباً جداً في فصل الصيف، وكان في هذه الليلة غارقاً في الصمت ومهجوراً إلى الأبد.

---

١ Château des Iles Jochem: حصن جزر جوشيم.

Twitter: @ketab_n

اعتباراً من هذه اللحظة في حياتنا بدأنا نعاني من القلق، ومن إحساسٍ متفشٍّ بالذنب والإيقان بأن علينا أن نهرب من شيء دون أن نعرف جيداً ما هو. هذا الهروب سوف يأخذنا إلى أماكن متباينة جداً قبل أن ينتهي هنا، في نيس.

عندما كانت سيلفيا متمددة إلى جانبي، كنت لا أتمالك نفسي عن أخذ الماسة بين أصابعي، أو تأمّلها وهي تلمع على جلدها وأن أقول لنفسي إنها تحمل الشؤم لنا. لكن لا. كان من قبلنا آخرون قاتلوا من أجلها، وسيأتي آخرون من بعدنا يحتفظون بها في أعناقهم أو أصابعهم، ولسوف تعبر هي القرون قاسيةً ولامبالية بالزمن الذي يمر والموتى الذين تتركهم خلفها. لا.

قلقنا لا يأتي من الاحتكاك بهذا الحجر البارد ذي البريق الأزرق وإنما يأتي، بلا شك، من الحياة نفسها.

غير أننا، في البداية، إثر مغادرتنا لافارين، عرفنا فترة قصيرة من الراحة والهناء. في لابول[1]، في شهر أغسطس/ آب

1 La Baule

Twitter: @ketab_n

استأجرنا، بواسطة مكتب في جادة ليلاس[1]، غرفة على تخوم ملعب الغولف المصغّر. وعند منتصف الليل كانت تهدهدنا صيحات اللاعبين وضحكاتهم. وكنا نذهب لاحتساء كأس، من دون أن نلفت انتباه أحد، جالسين إلى إحدى الطاولات، تحت أشجار الصنوبر، أمام المعرض حيث يوزعون العصيّ والكرات البيضاء للعبة الغولف.

كان الطقس حاراً جداً في ذلك الصيف وكنا متأكدَين من أنهم لن يعثروا علينا هنا أبداً. بعد الظهر كنا نتبع الردم ونراقب مكان المسبح حيث كان الجمهور أكثر ازدحاماً. عندئذٍ كنا ننزل إلى ذلك المسبح، بحثاً عن مساحة صغيرة حرّة لكي نتمدد على مناشف الاستحمام التي بحوزتنا.

لم نكن يوماً سعداء بمثل سعادتنا في تلك اللحظات، ضائعين وسط الجمهور الذي يعبق بعطر العنبر الشمسي. وكان الأطفال من حولنا يبنون قصورهم الرملية، والباعة الجوّالون يتخطّون الأجساد ويعرضون قشدتهم المثلجة. كنا مثل سائر الناس، لا شيء يميّزنا عن الآخرين، في أيام الآحاد تلك من شهر أغسطس.

---

1 Avenue des Lilas

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لماذا هرب الراوي مع صديقته سيلفيا من ضواحي المارن ليختبئا في مدينة نيس؟ من أين حصلا على العقد الماسي المُسمّى "صليب الجنوب" الذي ربّما كان شؤماً عليهما؟ من هما السيد والسيدة نيل، ولماذا اهتمّا بملاحقة حاملة العقد ورفيقها؟ من هو السيد فيلكور، وماذا كان يفعل في نيس، وماذا يربطه بسيلفيا؟

من خلال هذه الألغاز المتقاطعة ينسج المؤلف رواية رومانسية يطارد سحرُها القارئ لفترة طويلة.

باتريك موديانو روائي فرنسي حاز جائزة نوبل للآداب عام ٢٠١٤. ولد عام ١٩٤٥ في بولون - بيانكور. حاز الجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية للرواية عام ١٩٧٢، وجائزة غونكور عام ١٩٧٨، والجائزة الوطنية الكبرى للآداب عام ١٩٩٦ عن مجموع أعماله. تم تحويل الرواية إلى فيلم من إخراج مانويل بوارييه.

ISBN 978-6-14425-851-4

Avec le soutien du
CNL
Centre national du livre

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com